القيم بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية في المنهج المعرفي القرآني[1]

طه جابر العلواني.

المقدمة :

كلمة «**القيم**» جمع قيمة، وقيمة الشيء ما يقوَّم الشيء به، وقيامه بشيء ما يسدّد ذلك الشيء ويجعله قائمًا بحيث يمكن أن يقوم بغيره أو يقوم غيره عليه أو يستند إليه. وهنا يصبح جذر الكلمة ذا شعب عديدة ؛ فالمال جعله الله قيامًا تقوم به الحياة، قال تعالى : ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (النساء : ٥)، والدين قيّمٌ يقوم على غيره بالتسديد والإصلاح، وتقويم الاعوجاج، والهداية وما إلى ذلك قال تعالى : ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ١٦١).

وفي الوقت نفسه تمتد جذور الكلمة لتشمل جوانب الحياة المختلفة ؛ فللأُمَّة قِيمها التي تقوم بها، ولا قوام للأُمّة إلا بها، وللبشرية قيم، وللأخلاق قيم، وللسياسة قيم. وظلال الكلمة وإيحاءاتها تجعل منها مفهومًا بكل تفرعاته ومتعلَّقاتها.

فحين نقول : هذه قيمة سياسيّة أو تربويّة أو دينيّة فذلك يعني أنها مما يقوَّم به ذلك الشيء أي تُبرّز قيمته ماديَّة أو معنويَّة ويقوَّم به اعوجاجه كذلك إذا مال أو انحرف. فهي تدخل في حقيقة الشيء وتنعكس على سائر أعراضه الذاتيَّة ومتعلّقاته وجزئيّاته.

[1] المحاضرة الافتتاحية لدورة القيم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة ٦ فبراير ٢٠١٠. لكن تم إلغاء المحاضرة قبلها بيوم.

والقيم مطلقة ونسبيّة، فالقيم المطلقة هي : التي تؤدي وظائفها في سائر جوانب الحياة، ونظمها ومنظوماتها. وكأنّ البشر توافقوا وتعارفوا على اتخاذها قيمًا.

والقيم النسبيّة أو الجزئيّة هي التي تؤدي وظائف القيمة أو (القِوام) في جانب محدَّد.

والقيم المطلقة مشتركة بين البشريَّة مثل قيم «الخير والحق والجمال» وما إليها من «الحق والهدى والتزكيَّة والعمران». والقيم النسبيَّة تأخذ حيزًا أقرب إلى الخصوصيَّة أو الاختصاص بجانب معيّن.

هنا يبدو أنَّ «القيم» في الاستعمال القرآنيّ تفيد ما يمكن أن يُتّخذ هدفًا يسعى المؤمنون بتلك القيمة إلى تحقيقه، وهو في الوقت نفسه تقوم عليه دعائم أخرى تتصل بتلك الأمة أو الجهة الملتزمة بتلك القيم والمتبنيَّة لها، وتلك الأمور التي تقوم على تلك القيم وتعتمد عليها كأنها تنهدم بانهدام تلك القيمة أو اختفائها، فالقيمة هنا تؤدي وظائف متعددة كلٌ منها في غاية الأهميَّة فلا غرابة أن يصف القرآن الكريم الدين من حيث كونه دينًا بالقيم ﴿ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (الأنعام : ١٦١).

ثم يصف تنظيم الزمان وإخراجه من دوائر الانحرافِ باعتباره ظرفا للقيم وإعادته إلى معناه القيم، ويعقّب على ذلك بقوله : " ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ " في قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (التوبة : ٣٦).

وبذلك يصبح سائغًا أن نقول : إنَّ هناك قيمًا مشتركة بين البشريَّة–كلها–وهي قيم مطلقة عامة شاملة، وهناك قيم تتمسك بها شعوب وتهملها شعوب أخرى، أو قيم تتصل بجانب من جوانب الحياة، وقيم تتصل بجانب آخر، فهي قيم نسبيَّة، فما قد يكون قيمة عند شعب أو أسرة أو فرد قد لا يكون له أيَّة قيمة عند شعب أو فرد أو أسرة أخرى، وما قد يكون له قيمة في زمنٍ مّا أو مكانٍ مّا قد لا يكون له قيمة في زمن آخر، أو مكان آخر، ومن هنا اكتسب تحديد الثبات في القيم ووسائله، وبيان المتغيّر منها، وأسباب تغيره أهمية

خاصة، لابد من ملاحظتها ومراعاتها. وهناك قيم شرقيَّة تنسب إلى الشرقيين، وقيم غربيَّة، وصينيَّة، ويابانيَّة وما إلى ذلك.

فما حقيقة قيمنا القرآنية الإسلاميَّة ؟ وما الذي يقابلها عند الغربيّين ؟ وكيف يمكن تفعيلها ؟ وقد نجد أنفسنا في حاجة إلى أن نتعرض لبعض ما تتصف القيم به فنبيّن الثابت والمتغيّر في القيم، وكيف يحصل التغيير وما الفرق بين التغيير باتجاه الإنحراف في القيم، والتغيير باتجاه الاستمساك بها.

المنظور القرآنيّ لمفهوم «القيم» ومشتقاته :

لنتبيَّن معالم المنظور القرآنيّ لمفهوم «القيم» نجد أنفسنا في حاجة إلى أن ندرك أنَّ القرآن المجيد قد استعمل جذر هذا المفهوم استعمالات عديدة فاستعمله بمعنى ما به قيام الشيء واستقامته واعتداله ؛ لإنَّ ذلك كله مما يجعل ما نطلق عليه «قِيمًا» أو «قيمة» قادرًا على أن يؤدّي دوره في حياة البشريَّة، فالكتاب ينبغي أن يكون قيّمًا لا ريب فيه ولا انحراف، ولا اعوجاج، والإيمان ينبغي أن يكون قيِّما لا شرك فيه ولا انحراف، والإنسان وحقيقته، والدين وحقيقته، والتاريخ وحقيقته، والجمال والخير والحق. كل تلك الأمور تعتمد على أشياء وأمور لا يمكن أن يكون لها قيام إلا بها، ولا يتم أمرٌ من هذه الأمور إذا حدث خلل أو اعوجاج أو تجاوز لما يمكن أن تقوم به أو عليه، فالزمن قيمة، والإنسان–بحقيقته الإنسانيَّة–يقوم على مجموعة قيم، والكون يقوم على قيم كذلك، والحياة. وغيرها.

ويكاد يكون شيئا فطريًّا أن يحاول الإنسان معرفة قيمة فعله أو قوله أو تحركه في نظر نفسه، وفي نظر الآخرين، ويبحث عن أصول ذلك التقويم ومصادره وأدواته.

والطفل أحيانًا ينظر في وجوه من حوله قبل أن يتحرك أو يتصرف، وأحيانا يتصرف ثم يحاول معرفة أثر تصرفه في الآخرين.

واللغة والإشارات وتعابير الوجوه، ومظاهر الانبساط أو الانقباض فيها كلها مما يوحي للإنسان بقيمة عمله، وما إذا كان مقبولاً أو مرفوضًا، حسنًا أو قبيحًا، وكذلك الجزاء المترتّب عليه.

وثقافات الأمم والشعوب محمّلة بالكثير من العادات والتقاليد والتصورات القيمية.

الثبات والتغيّر :

وحين نأتي إلى السؤال العتيد الدائم حول ثبات القيم واستقرارها أو حركتها وتغيّرها نجدها تخضع سواء أكانت مطلقة أو نسبيّة–لمجموعة كبيرة من المعطيات والمؤثرات منها : "التكرار، والتربية، والتنشئة، والقانون والنظام، والجزاء والعقاب"، إلى معطيات أخرى كثيرة يمكن أن تنبّه إلى ما هو ثابت وما هو متغيّر من تلك القيم، ومقاييس كل من الثابت والمتغيّر.

وقد حرص القرآن الكريم أن يؤسّس لمفهومي «المعروف والمنكر» ليجعل من كلٍ منهما وعاءً للقيم، ومستودعًا لها، الأول فيما يتعلق بالقيم الإيجابيَّة، والثاني وعاء للقيم السلبيَّة. وذلك لإنَّ القرآن الكريم قد فصله الله على علمه، المحيط بكل شيء، فأودع فيه في ذلك الإطار كل ما يمكن أن يكون مؤثّرًا في هذا المجال، وهاديًا إلى التي هي أقوم فيه.

مصادر القيم :

وللقيم مصادر تُنتجها، وبذلك–كلّه–يصبح الأمر ذا قيمة، فيمكن أن يُجعل تحقيقه هدفًا، ويمكن أن تُبذَل الجهود لإيجاده، وتُبذَل التضحيات لبلوغه ولحمايته، وعلى ذلك فالقرآن المجيد يبيِّن لنا كثيرًا من «قيم الجاهليَّة»، ويقدم البدائل عنها بعد أن يبيّن زيفها فحين ينقل–جل شأنه–عن المشركين قولهم : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف : ٤٣) لاشك أنَّ «العظمة» قيمة عندهم بدليل

أنَّهم وصفوا بها مَن يرون أنَّه الأحق بنزول الوحي عليه. ويبيّن لنا : أنَّ العظمة عند هؤلاء تقوم على أن يكون ذا مال وبنين، وجاهٍ عريض بني عليهما. يقول شاعرهم :

ولا يقيم على خسفٍ يُراد به ... إلا الأذلان غير الحيّ والوتد.

ثم لا يُنظر بعد ذلك منهم إلى خُلق أو إيمان أو رؤية أو سواها بل يكفي عندهم هذه العظمة التي يستمدها من كثرة المال، والولد والعشيرة والعصبيَّة، وكل هذه الأمور لا تدخل في حقيقته الإنسانيَّة، لكنّها كانت قيمًا هامَّة لديهم بها تقاس «العظمة والضعة» التي تضادّها. وهناك المظاهر الخارجية الأخرى بما فيها وسامة الإنسان أو دمامته.

والقرآن الكريم تدرّج مع هؤلاء كما فعل في كثير من الأمور، والمسلَّمات فعمل على أن يهز ثقتهم بفهمهم لتلك القيم، ويفرّغها من المعاني الأخرى، فقد كان الجاهليُّون ربّما يرون في قدرتهم على التلاعب بالزمن، واستعمالهم للنسيء وما إليه قيمةً، فأعلن لهم عن خطئهم، وبيَّن لهم أنَّ الالتزام بالدور الذي وضعه الله تعالى للزمن هو الدين القيِّم الذي بدونه لن تقوم حضارة ولن يوجد عمران، ولن يتمكن الإنسان من القيام بمهام الاستخلاف والوفاء بالعهد الإلهيّ، وأداء حق الأمانة والنجاح في اختبار الابتلاء.

وقد استمر القرآن الكريم عبر سوره الأربعة عشر ومائة يهدم قيمًا جاهليَّة ويبني قيمًا أخرى، ورسول الله ﷺ يقوم بتفعيل ذلك في الواقع الذي يعيشه الناس فإذا كان الناس قد اعتبرت الغنى قيمة إيجابيَّة والإفلاس قيمة سلبيَّة، فرسول الله ﷺ فيما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ–صلى الله عليه وآله وسلمّ–قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ». قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ فَقَالَ : « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا

مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »[2].

من هنا كان يقول أحد الصحابة أنَّ النبي ﷺ كان يُفرّغنا ويملؤنا[3]، يعني بذلك أنّه كان يفرغهم من المفاهيم الخاطئة، والقيم المختلفة الكاذبة، وبعد أن يُطهِّر عقولهم وقلوبهم منها يزرع قيم القرآن البديلة في تلك العقول والقلوب، ولذلك حينما ندرس نماذج جيل التلقي نجد هذا الأمر واضحًا ظاهرًا. فالاحتماء بالقبيَّلة والتعصّب لها قد حلّ محله "مفهوم الأُمَّة" والقيم التي يقوم بناء الأُمَّة عليها. والجامع أصبح مكان العبادة والتقوى، ومذاكرة العلم وليس النادي ولا دار الندوة الذي تعاقر فيه الخمر أو يُعبث فيه مع النساء، ويخلع الإنسان فيه إزار الحياء فتصبح البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه البديل، والقيم التي تقوم عليها من الأماكن المفضّلة التي تلتقي الناس فيها، وقيم الذكر والعبادة، والفكر والعلم هي التي تستبدل بها ذلك العبث الذي كان. وهكذا استمرت عمليَّات تغيير القيم واستبدالها بالقيم التي أسّس القرآن لها وأرسى دعائمها. وهذه القيم يمكن أن نجعل لها أصولًا جامعة تُدرجِ تحت كل أصل مجموعة من القيم الفرعيَّة أو المشتقة، فأعلى القيم وأهمها قيمة «التوحيد» ؛ فالتوحيد يحقق كمًا كبيرًا من القيم الفرعيَّة التي لا تقوم إنسانيَّة الإنسان بدونها، فبالتوحيد يتخلص الإنسان من الضعف الذي قد يجعل منه طيِّعا في عبادة بشر مثله، أو اتخاذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله. وتتحقق المساواة، وتقام أسس العدالة والحريَّة، والتكافؤ في الحقوق والواجبات والمسئوليَّات.

هل يدخل المكان والزمان في القيم ؟

قال تعالى : ﴿**جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (**المائدة : ٩٧**). أي

[2]– أخرجه البيهقى في سننه، (٢ / ٢٩٦)
[3] يخرج هذا القول **********

مكانًا يمثل وجهة للبشريَّة، ويمثّل نموذجًا، المكان الذي تقوم حول محوره "وحدة أُمَّة الأنبياء"، وهي قيام في الوقت نفسه فيها مقام إبراهيم، وفيها الأمن والطمأنينة لا للإنسان فقط بل وللحيوان والنبات كذلك. وهي بذلك قيامٌ للناس، تُذكّرهم بوحدتهم في الأصل والصيرورة، والغاية والمصير، وتُذكّرهم بأنَّهم أسرة واحدة ممتدة تمثل ذرية مَن حمل الله تعالى مع نوح. لديها في الأماكن، هذه الكعبة التي تمثّل وجهتها وقبلتها، ومحتوى تراث النبيين كافة، إليه تهفوا قلوبها، وإليه تتجه وجوهها، وفيه تجد أمنها وسلامها، ومنه تقتبس سائر الدروس التي تجعلها قادرة على أن تجمع كلمتها حول قيمها المشتركة من "توحيد، وتزكية، وعمران، وعدل ومساواة وحريَّة"، وما إلى ذلك، وفيها يقوم الناس لرب العالمين، فإذا ضُم إلى ذلك الزمن كله وأدركت البشريَّة أهميَّة الزمن في تحقيق السلام والأمن، وأهميَّة الأشهر الحرم التي تمثل فترة أمن وسلام، ومراجعة تسمح للنفوس التي امتلأت بالخوف والرعب والحقد والكراهية، والقلوب التي استولت البغضاء عليها أنّ تتوقف لتلك الأشهر الأربعة عن القتال، وتمتنع عن سفك الدماء أو تعطي لنفسها فرصة مراجعة تتذكر فيها القيم المشتركة لعلها تجد أن هذه القيم يمكن أن تفثأ الغضب وتوقف الحرب، ويتغلب بها صوت العقل، فتجنح إلى السلم والأمن المشترك وتتخلّص من جذور الاختلاف والتنازع.

ومن هنا يتضح دور هذه الكعبة، وهذا البيت الذي جعله الله قيامًا للناس، وهو أول بيت وُضع ببكة بناه أبو الأنبياء وولده اسماعيل ليكون إضافةً إلى فرص الطواف فيه وفوائده والاعتكاف والعبادة فيه وما لها من تأثير قيامًا للأمن والسلام بين الناس، وتحقيقًا له بشكل يجعله نموذجًا ومثالاً لكل ما في الأرض.

قيمة المال :

قال تعالى : ﴿ **وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾ (**النساء : ٥**).

نهى الله (تبارك وتعالى) عن إيتاء السفهاء الأموال يتصرفون بها كما يشاؤون وهم متصفون بالسفه دليلٌ على أهميَّة وخطورة دور المال في الحياة الإنسانيَّة، وأنَّ الله–تبارك وتعالى–هو مَن أناط ذلك الدور بالمال فجعله عصب الحياة وأُس الحضارة والعمران، ووسيلة البناء والتمكين، وبالتالي فقد بنى القرآن الكريم منظومة كاملة حول المال وأثره في ذلك كلّه ؛ فنهى عن أكله بالباطل أو جمعه بوسائل غير مشروعة، أو التبذير فيه والإسراف أو احتكاره وجعله دُولة بين الأغنياء، أو ألعوبة بأيدي السفهاء إذ به تقوم الحضارة، وعليه يتوقف العمران، وبه تستمر الحياة، وبه يُدعم الحق ويُعزّز، ويُدحض الباطل ويُهزم فلا غرابة أن يجعله قيامًا للناس، وأن يحيطه بمنظومة من القيم تضمن له أداء دوره السليم في الحياة الإنسانية. وكل ما عرفت البشرية بعد ذلك عن الأموال نجد له في كتاب الله تعالى، وفي اتباع رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلّم–لآياته أصولًا أوفى وأزكى وأكثر اتصالًا وترابطًا بحيث يمكن أن تنبثق عنها منظومة قيم شاملة عامة تشمل سائر قضايا الاقتصاد.

القيم العليا الحاكمة : التوحيد، التزكيّة، العمران :

هذه القيم العليا الحاكمة من حيث حقيقتها هي قيم في أعلى مستوى ومرتبة من مراتب القيم. ومن حيث كونها مقصودة للشارع الحكيم مطلوب تحقيقها فإنَّها يطلق عليها"المقاصد القرآنيَّة العليا". ومن حيث حاكميتها على ما دونها هي "مقاصد وقيم حاكمة" ؛ ولذلك ساغ أن نطلق عليها قيم من حيثية معينة، كما نطلق عليها مقاصد من حيثيات أخرى فهي قيم وهي مقاصد في الوقت نفسه. والقيم كلها بكل مستوياتها وعلى اختلاف مواقعها تندرج في مقصود الشارع الحكيم تحت هذه القيم فلابد لنا من استحضار هذا لئلا يظن أننا نخلط بين القيم والمقاصد.

١) التوحيد :

يُعد «التوحيد» أسَّ الهرم وقمته في هذا النسق القرآني، و«التوحيد» هو الإقرار والاعتراف النابع من اليقين بأحديَّة الله ﷻ ووحدانيَّته، وتفرُّده ﷻ تفرّدًا مطلقًا في كل ما هو مختص به، من الألوهيَّة والربوبيَّة والأسماء

والصفات، والإقرار–عن يقين–كذلك بانتفاء أضدادها ومنافياتها عنه ﷻ، و«التوحيد» أساس الدِّين–كلّه–فما من أمر كليّ أو جزئيّ، أصليّ أو فرعيّ، مقاصديّ أو تعبُّديّ، عقديّ أو شرعيّ، نُظميّ أو أخلاقيّ، إلاّ وهو قائم على «التوحيد» منبثق عنه، وإنْ لم يكن كذلك فليس من الدين، ولا يكون من التديُّن في قليل ولا كثير، بل هو إلى البدعة والانحراف أقرب. فالتوحيد جوهر رسالات الرسل والأنبياء كافة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل : ٣٦).

إنَّ «التوحيد» الذي نريده في مجال الإيمان إنما هو : الحكم اليقينيّ بوحدانيته تعالى والعلم اليقيني والإدراك الجازم لتلك الوحدانيّة، ونفي الشريك والشبيه والند والضدّ والمساوي والوسيط، وتجريد ذلك اليقين بالوحدانيَّة عما يتصور أو يتوارد في الأفهام أو يتخيل في الأوهام، أو يرد على الأذهان من خواطر منافية، ونسبة سائر صفات الكمال التي تقتضيها الألوهيّة وتستلزمها الأسماء والصفات، ووصف الله تعالى بها ذاته العلية ونسبتها إليه دون تشبيه أو تعطيل أو تأويل أو تكييف أو تمثيل يخرجها عن سياقها.

وقد أودع الله تبارك وتعالى في الإنسان القدرة على الفهم والإدراك، فالذاكرة أو الحافظة الإنسانيّة، وطاقة التخيُّل، والقدرة على النظر والتفكر، والملاحظة والحدس والاستيعاب وغيرها، كلُّها طاقات أودعها الله–تعالى–في الإنسان لتمكّنه من الفهم والإدراك. لكن استيعابه للتوحيد وفهمه له أُرسيت دعائمه، وأُقيمت قواعده في فطرة الإنسان، كما أقيمت أُسسه في طبيعته، وأوجد الله–تبارك وتعالى–في الفطرة الإنسانيّة والطبيعة الآدميّة البشريّة نزوعًا لا يتوقف إلى إدراك التوحيد وفهمه ثم الإيمان به واليقين فيه. ويظل القلب قلقًا، والنفس الإنسانيّة مضطربة حتى تبلغ شاطئ التوحيد فتهدأ أو تهنأ ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد : ٢٨).

وتوحيد الله تعالى واليقين بتفرده بالربوبيَّة والإلهيّة والأسماء والصفات، وتنزيهه عن الأنداد والشركاء أهم ما يتميّز الإسلام به عن سواه. وقد حرص القرآن الكريم على توضيح كل معالم التوحيد صغيرها وكبيرها ليتمكن المؤمنون من التحصن ضد سائر أنواع الشرك كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخفيها. وقد بيَّن الله-تبارك وتعالى-أنَّه قد يغفر الذنوب جميعا إلا الشرك أيًا كان نوعه ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء : ١١٦)، وقال تعالى : ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج : ٣١)، وذلك لما للشرك من آثار خطيرة على سائر جوانب الحياة، الكرامة الإنسانيَّة.

أقسام التوحيد(٤) :

من هنا انقسم «التوحيد» إلى أقسام ثلاثة هي : «توحيد الألوهيّة، وتوحيد الربوبيّة، وتوحيد الأسماء والصفات».

فتوحيد الأُلوهيّة يتجلَّى في حصر كل ما يشتمل عليه "مفهوم العبادة" من ضروب التوجه والتوسّل والتعبُّد والاستعانة والدعاء والتبتُّل في الله سبحانه، فلا أحد سواه يستحق أن يُعبَد أو يُخاف ويُرتجى فيُتوجّه إليه بأيّ نوع من أنواع الدعاء أو التوسُّل أو التعبُّد.

وقد يطلق على هذا النوع من التوحيد أيضًا توحيد العبادة قال تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء : ٢٣) وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء : ٣٦).

(٤) التوحيد بشرح الشيخ محمد بن الصالح العثيمين، والتوحيد للفاروقي، والفصل الخاص بجوهر الحضارة الإسلامية في أطلس الحضارة والثقافة، والرؤية التوحيدية للعالم الشيخ مرتضى مطهري، وفلسفتنا للشهيد محمد باقر الصدر، وموجز في أصول الدين للشهيد محمد باقر الصدر، تحقيق ودراسة عبد الجبار الرفاعي، ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده، وكتاب الإيمان للشيخ حسن الترابي.

وأما «توحيد الربوبيَّة» فهو شامل للإقرار بوحدانيَّة الله تعالى في الخلق والملك والتدبير، ﴿ الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة : ٢) فهو سبحانه متفرّد بالخلق والأمر : ﴿ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف : ٥٤) وقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر : ٣).

وأما تفرده سبحانه في الملك ففيه قوله تعالى ﴿وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران : ١٨٩) وأما «التدبير» فهو تصريف الأمور بحكمة، مع إدراك لعواقبها، وعلم بما ينجم عنها، وهو تبارك وتعالى متفرد بالتدبير ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ (يونس : ٣).

وأما «توحيد الأسماء والصفات» فيشتمل على الإقرار بتفرُّده–جل وعلا–في سائر أسمائه وصفاته، وإثبات كل ما أثبته سبحانه لنفسه، ونفي كل ما نفاه عن ذاته العليّة، واليقين بعدم مماثلة أحد له في شيء من ذلك كله، أو مشاركته فيه، وتجنُّب الانغماس في التأويل والتعطيل والتشبيه والتكييف والتمثيل [٥].

التوحيد جوهر الرسالات كلها :

وهذا التوحيد هو جوهر رسالات الرسل والأنبياء كافة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوت﴾ (النحل : ٣٦) وهو غاية الحق من الخلق، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات : ٥٦)، أي ليوحدوني في أُلوهيّتي وربوبيّتي وأسمائي وصفاتي، وما يستلزم ذلك من طاعة في المأمور به، واجتناب للمنهيّ عنه، والوقوف عند حدوده، والقيام بمتطلبات العهد الإلهيّ، وائتمان البشر وابتلائهم واستخلافهم في الأرض، وتحقيق غايات الحق من الخلق. جل وعلا وتبارك وتقدّس في أُلوهيَّته وربوبيَّته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

(٥) راجع عقائد السلف، تحقيق د. علي سامي النشار.

فالتوحيد حجر الزاوية في رسالات الرسل كافة وتعاليم الأنبياء أجمعين، وما كان التوحيد بهذه المكانة، ولا حظي بكل ذلك الاهتمام إلا لإنّ كل ماعداه متوقفٌ عليه لا يتحقق ولا يستقيم إلا به : فعلى سلامة التوحيد تتوقف أركان الإيمان كلها. وعلى طهارته من سائر أنواع الشرك تتوقف دعائم الإحسان جميعها، ولا تقوم الرؤية الكلية الهادية إلا عليه. إنه وسيلة الإشعاع والإنارة لكل ما سواه. فلا يستقيم التصور الإنساني لمن خدش الشرك عقيدة التوحيد فيه.

ولا يستنير الفكر إذا لم تنعكس أشعة التوحيد عليه. ولا يهتدي السلوك الإنساني إلا به، ولا يرتقي إلى معارج التزكية إلا بسلالمه، ولا يبلغ العمران إلا بسلوك سبيله، ولا تتحقق عدالة إلا بعد اليقين به، ولا تقوم دعائم حرية أو تحرر أو مساواة إلا على قوائمه.

ويُعد «التوحيد» مدخلاً تفسيريًّا شديد التأثير، كبير القدرة على تفسير كثير من الظواهر الاجتماعيّة والعمرانيّة، ومضادَّاتها ومنافياتها، إضافة إلى قدراته المتنوعة في التنبيه على السنن والقوانين المبثوثة في الأنفس والآفاق، التي لا تخفى ضرورة معرفتها العلميّة والمعرفيّة.

إنَّ من المحال أن يتزكّى الإنسان تزكية تامة بدون التوحيد، كما أنَّ من المحال أن تُعمَّر الأرض بدون التوحيد كذلك ؛ لإنَّ البديل عن التوحيد هو الشرك بأن يتخذ البشر شركاء لله منهم في صورة من الصور ليس بالضرورة أن تكون من بينها الصلاة لهم، وقد يشركون بالله أهواءهم وشهواتهم، وقد يتخذون آلهة من دون الله، من رؤسائهم وملوكهم وأحبارهم ورهبانهم يشرّعون لهم ويتحكمون فيهم.

وقد يقول قائل : إنَّ أهل التوحيد أقاموا حضارة وعمرانًا قائمين على توحيدهم، وهم يسلّمون أنّ هذا العمران لا يكون إلا بالتوحيد، ولكنّ هناك شعوبًا مشركة أقامت حضارةً وعمرانًا عبر التاريخ وكان لها أثار بعضها قائم حتى وقتنا هذا، ولازالت تقيم حضارات وتعمّر الأرض حتى الآن مثل اليابان والصين وغيرها، وكذلك الحضارة الغربيَّة مشوبة بالشرك، ولكنّها حضارة قائمة يستفيد العالم-كلّه-بمنتجاتها ومعطياتها الحضاريَّة

فلماذا يُقال إنّه فقط «بالتوحيد»-كما جاء القرآن به-تقام الحضارات وتستقيم وتستمر وتدوم ؟!.

الجواب :

التوحيد هو الشيء الوحيد الذي يوصِل الدنيا بالآخرة، فيقيم الحياة الطيّبة في الدينا ويستمر حتى يوصّل الإنسان إلى الدار الآخرة بسلام. فكل ما تُقيمه البشريّة وحضاراتها المشركة قائمٌ على فلسفة : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم : ٧)، فلسفة "القشرة والذهب" فالتوحيد يقيم عمرانًا حقيقيًّا، والشرك قد يقيم عمرانًا لكنّه عمران زائف يفتقد عنصر الحقيقة والشموليَّة. أما التوحيد فمن شأنه إقامة الحضارة الثابتة، فيؤسس لإطارها المرجعي، ويضع لها نسقها السامي، ويؤدي بها إلى آثارها الإيجابيَّة، فلذلك وصف الله-سبحانه وتعالى-الآخرين بأنَّ عندهم علمًا ولكنّه علم ظاهر الحياة الدنيا ؛ فلم يأخذ الحياة الإنسانيَّة بشموليّتها من عالم العهد إلى عالم الاستخلاف، ومنه إلى عالم الجنة والنار، ولكنه أخذ فترة الوجود على الأرض فقط وتعامل معها، والتوحيد يجعلنا نأخذ الحياة الإنسانيَّة بجملتها من «العهد إلى الخلد».

إنَّ التوحيد مقصد أعلى لا يتحقّق في ضمير الإنسان ووجدانه بيقين إذا لم ينعكس على كل جزئيّة من جزئيَّات المعرفة والعمل، وعلى كل جانب من جوانب التصور والفكر والحركة، وعلى مفردات الواقع في الاقتصاد والثقافة والاجتماع والسياسة والخلق والسلوك والآداب والفنون، وسائر جوانب الحياة الأخرى.

وحين نُعالج موضوع «التوحيد» باعتباره قمة "هرم المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة" تستوقفنا ظواهر عديدة تقف في مقدمتها ظاهرة اتخاذ القرآن المكّي-عبر الأعوام الثلاثة عشر التي تمثّل وقت نزوله كله-التوحيد محوره الأساس وقضيته الأولى، وما ذلك إلا لإنّ التوحيد في هذا الدين جوهر طبيعته، وأُس بنائه، وقوام منهجه في بناء كيانه وفي امتداده وانتشاره. وآثار هذه الظاهرة في صنع الجيل الأول السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، ومنهم آل بيت النبي الأطهار-صلى الله عليه وآله وسلم-ظاهرة بارزة ؛ فقد كان ذلك الجيل جيلا مميزا لا في تاريخ الإسلام-وحده-بل في تاريخ البشريّة كلها، فما أخرجت البشريّة قبله ولم تخرج بعده هذا

النمط مرة أخرى بقطع النظر عن كل ما حدث بعد ذلك. لقد عرف في تاريخ المؤمنين بالرسل أفراد متميزون في مراحل مختلفة، بل عرفت الأُمم أفرادًا من هذا النوع في مختلف عصورها، ولكن لم تحتفظ ذاكرة التاريخ البشري بوجود جيل ذي عدد ضخم في مكان وزمان محدود أخرجته دعوة من الدعوات السماويَّة أو الأرضيَّة كذلك الجيل الذي أرسى القرآن المجيد دعائم التوحيد في ضميره ووجدانه، وعقله، وكيانه، وحياته، ومجتمعه، عبر العهد المكي كله حيث كان محور القرآن المجيد النازل في تلك الفترة الأول والأخير إنما هو التوحيد فقط لاغير.

إنَّ الرعيل الأول قد استقى التوحيد خالصًا سائغًا من النبع القرآني الصافي وحده، وتعلّم من رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلّم-كيف يتعاهد التوحيد في كل حين وفي كل موقف لئلا تشوبه الشوائب، أو تُكدّر نقاءه المكدّرات، فكان لذلك الرعيل في التاريخ ذلك الشأن الفريد، فهو جيل ربانيّ ما شابت إيمانه شائبة، ولا وجدت نواقض التوحيد إلى قلوب بنيه سبيلا.

التوحيد وما يستدعيه :

يبرز التوحيد في التصور الإسلاميّ باعتباره المقوّم الأساس من مقومات ذلك التصور، ولاشك أنه المفهوم الأساس والدعامة الكبرى فهو بمثابة أصل الشجرة وجذعها، أمَّا فروعها فهي بقية المقومات والأركان التي تتكامل شجرة الإيمان بها، فهناك العالم الذي نعيش فيه، وهناك عالم الغيب وعالم الشهادة، وهناك مصادر التصور ووسائط نقله للإنسان، وهناك الدار الآخرة وجانب الجزاء الذي يكون فيها، وهناك المخلوقات التي تشاركنا هذا الوجود دون أن يكون بيننا وبينها تداخل وتعامل مباشر، وهناك الرسل الذين سبقوا نبينا عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه، والكتب التي أنزلت عليهم، وكل ذلك مما أُمرنا بالإيمان به.

هذا التوحيد بكل أبعاده، وما اقتضاه واستلزمه وتناوله وامتد إليه، أو انطوى عليه، لم يكن شيئًا كامنًا في الضمير لا علاقة له بمجريات الحياة ولا بمكونات الحضارة والعمران، كما آل إليه لدى الملايين من المسلمين،

بل هو جوهر العمران وأساس البناء الحضاريّ ؛ لذلك كان للتوحيد انعكاساته على سائر جوانب الحياة، بدءًا بالفكر والتصور والاعتقاد، مرورًا بالمعرفة وتحديد شبكة النظم والعلاقات المتنوعة وقواعد السلوك والأخلاق، وانتهاء بإقامة العمران وانتظام الخلق كله في فلك التسبيح ومدار التنزيه ومسيرة التقديس والعبادة لله الواحد القهار.

انعكاسات التوحيد على مختلف جوانب الحياة :

إنَّ التوحيد–كما بيَّن القرآن حقائقه–عنوان الدين وجوهره، فإذا كان الدين عقيدةً وشريعةً وسلوكًا، فإنّ التوحيد في عرض القرآن له يتضمن ذلك كله ويستلزمه ويقتضيه ويستدعيه كما وضحنا، فقد رأينا كيف أنّ القرآن الكريم يعرض الإيمان، كما لو كان شجرة باسقة جذرها التوحيد، بكل ما يتصل به بشكل مباشر، وجذعها وساقها الإقرار والاعتراف بذلك بكل وسائل الإقرار والاعتراف والإعلان الملائمة، وأغصانها وثمارها الأعمال والسلوك.

كما أن الموحّد لن يسخّر العلم إلا فيما يرضيه تعالى وينفع الناس فلا مجال لتسخير العلم لبناء أسلحة الدمار الشامل أو غير الشامل، ولا مجال لتسخير العلم ومنجزاته لإفساد الحياة، وإعلاء شأن الفساد والإثم فيها، وتدمير البيئة والإنسان والحياة والأحياء وخيانة واجب الاستخلاف ومهام العمران. والعلم والمعرفة عند الموحد يقتضيان العمل الصالح، فالموحد يستعيذ بالله من علم لا ينفع[٦].

والتوحيد قبل ذلك وبعده يبني للإنسان "المنهج العلميّ، والنظام المعرفيّ"، ويحدد له كل ما يتعلق بالمعرفة، بدءًا بالمنهج والنموذج، وفلسفة المعرفة وتاريخها وتصنيفها، ومصادرها، وانتهاء بوظائف العلم والمعرفة في حياة الإنسان والمجتمع. فهو نظرة عامة إلى الواقع والحقيقة والعالم والزمان والمكان والتاريخ البشري [٧]، لذلك

(٦) راجع مقدمة الشيخ عبد الجبار الرفاعي لكتاب الشهيد محمد باقر الصدر (موجز في أصول الدين) ص ١٥، ط١، ١٤١٧هـ.

(٧) راجع اطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل الفاروقي، الفصل الرابع.

استطاع التوحيد أن يمنح (العمران والتمدن) الإسلاميّ هويّة خاصة ميّزتها عن سائر الحضارات الإنسانيّة السابقة واللاحقة، وجعلت من مكونات العمران والتمدن كيانًا قائمًا يسمّى «الأُمَّة الوسط، أو القطب، أو خير أُمَّة».

٢) التزكية :

للعلم والمعارف والخبرات والتجارب وظائف وأدوار أساسيَّة في حياة الإنسان ودوره فيها، فالقرآن المجيد لم يطلب من الإنسان التعلُّم وطلب المعرفة لذات العلم والمعرفة، أو للاستعلاء والاستكبار في الأرض، ودعوى الاستقلال عن الله ﷻ بالعلم، ولذلك فإنَّ القرآن المجيد ربط بين العلم والتزكية، فالتزكية غاية من أهم غايات التوحيد، ومقصد من أهم مقاصد الدين، ومحور من أهم المحاور الثلاثة التي دارت حولها آيات الكتاب الكريم.

و«التزكية» باعتبارها مفهومًا واسعًا، ودعامة من دعائم المقاصد والقيم العليا الحاكمة، تمثلّ ثمرة من ثمار العلم، ونتيجة من نتائجه. كما أنَّ التزكية تؤدي إلى أنْ يمارَس العلم والتعلّم ممارسة إسلاميَّة هادفة يتلازم فيها العلم والعمل في إطارٍ من القيم، وإذا كانت التزكية تعود على العمليّة التعليميَّة بما يعرف بـ«الاستقامة العلميَّة» فإنَّ «العلم والمعرفة» تزكية للعقل وإنماء «لقوى الوعي الإنسانيّ»، وجعلها قادرة على ممارسة دورها بالشكل الذي رسمه الخالق البارئ المصوّر لها، فلا تكون معطلة محجوبة مثل قوى أولئك الذين وصفهم الله ﷻ بقوله : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف : ١٧٩] فهؤلاء خرجوا بتعطيل قوى الوعي فيهم، وأُلحقوا بالأنعام والبهائم والدواب، فلم تعد تلك القوى قادرة على مساعدتهم وإعادتهم إلى حالة «التزكية» ليكونوا بشرًا سويًّا، قادرين على حمل الأمانة، ومهام الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهيّ، والنجاح في اختبار الابتلاء، فالتزكية تصبح ميزانًا نزن به فنون العلم والمعرفة ؛ لنميز بين العلم النافع والعلم الضار والقبيح منه والحسن، والممدوح منه والمذموم، وتصبح التزكية مع المحدّادت الأخرى «بَوصلة هادية» في ميادين العلم، وآفاق المعرفة والفنون والآداب، والتقوى ثمرة «التزكية» والملكة التي تتكون بها وأساسها في الوقت ذاته، وقد ربط الله–تبارك وتعالى–بين التقوى وتعليمه الإنسان ربطًا محكمًا، فقد قال جلّ شأنه : ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فهي ملكة إذا حصلت للإنسان ومارسها هيأت قوى وعيه، وشحذتها، وجعلتها ذات قدرة على إدراك الحقائق كما هي، وأضعفت كثيرًا من

موانع المعرفة الحقيقية والصوارف عنها، وأبعدتها عن العقل والمنهج، وحين غُض النظر عن مبدأ الارتباط بين المعرفة والقيم برزت مجموعة من المشكلات الكبرى، التي هددت ولاتزال تهدد البشرية كلَّها في أمنها وسلامتها وبيئتها، وكل شيء فيها.

الهدف الأقصى للإسلام : إنسان التزكية :

من المعروف لدى المهتمين بالدراسات الإنسانيّة أنّ «الشخصيَّة الإنسانيَّة» قوامها قاعدتان أساسيتان :

أولاهما : العقليّة الإنسانيّة فهي شطر الشخصيَّة التي لا قوام لها بدونه، وهي قاعدتها الأولى.

وثانيتهما : النفسيَّة الإنسانيَّة وهي الشطر الأساسيّ الآخر. وتفقد الشخصيَّة الإنسانيَّة كينونتها، وهُوِيَّتها، إذا اهتز أحد الجانبين، أو خرج عن طبيعته التي حددها الباري العظيم له، أو لم ينل نصيبه من تعليم الكتاب والحكمة والتزكية.

وقوام «العقليَّة» العلوم والتجارب والمعارف والخبرات، وقوام «النفسيَّة» الفنون والآداب بأنواعها الهادفة.

وأُمّة لا علوم لها ولا معارف، ولا خبرات ولا تجارب كوّنتها في دائرة هذه العلوم، تنفيذًا لها، واختبارًا لصحتها ودقتها، لا يمكن أن تبني حضارة، ولا أن تقيم عمرانًا. وكيف يتحقق شيء من ذلك بشخصية لا قوام لها ؟!.

وأُمَّة لا فنون رشيدة تهذب سلوكها، ولا آداب حكيمة تقيم نفسيَّتها، لا يمكن أن تحقق ثقافة ولا أن تقيم عمرانًا. وأنَّى لها أن تفعل وقد فقدت نفسيَّتها وانهار بنيانها ؟ لذلك فإنَّ قيم الإسلام الحاكمة، ومقاصده العليا : التوحيد وما ينبثق عنه، والعمران وما يتفرع عنه لا يقوم أيّ منها بدون عقليَّة قويمة ونفسيَّة مستقيمة. وما أسمته الفلسفة بـ«قيم الحق وقيم الخير وقيم الجمال» كل أولئك لا يمكن أن يتحقق شيء منه في واقع الحياة

بدون وجود إنسان التزكية، وبناء الشخصيَّة المزكاة عقليًّا ونفسيًّا، وإلا فلن يوجد الإنسان المعمِّر البنَّاء المجاهد الذي يهوى التضحيَّة، ولا العالم الذي يعشق العلم والمعرفة، ولا الناسك الذي يستمسك بالتقوى ويتزيَّن بها، ولا الفنان الذي يملأ الدنيا فنًّا رفيعًا وثقافة، فيوحي للناس بلون الحياة التي لابد أن يحيوها، ويهذب مشاعرهم ويرقّي نفوسهم ليتعلموا كيف يحيون حياة الخليفة في الكون فيحبون ما فيه، ويعشقون عمارته، ويكرهون الإفساد فيه، ويقاومون محاولات التخريب التي قد يمارسها المفسدون.

إنَّ إنسان التزكيّة قد يضحي بحياته، وقد يفارقها شهيدا، وهو يحاول أن يحفظ للحياة قيمتها، وللعمران مقوماته الحقيقيَّة ولو بالتعالي على الدنيا وأهوائها.

إنَّ «الإيمان» ذاته لا يأتي به العلم–وحده–ولا المعرفة المفردة، بل لابد فيه من بذرة حب الله ورسوله–صلى الله عليه وآله وسلم–تحققها التربية السليمة فتحول ناتج العلم والمعرفة إلى إيمان. إنّك لا تستطيع أن تولد من الأوكسجين والهيدروجين وحدهما ماءً، وإذا ولّدت قطرات فلن تولّد بحارًا ولا أنهارًا ولا محيطات أو بحيرات، لإنَّ هناك عنصرًا آخر يرتبط بعالم الأمر الإلهيّ ليجعل من العنصرين ماء لا تستطيع إيجاده، وكذلك العلم وحده، والمعرفة وحدها لا يوجد أيٌّ منهما ولا يوجدان مجتمعين «إيمانا كاملا ويقينا صادقا»، بل لابد من تضافر عناصر أخرى معهما تبني النفس وتحرك جوانبها المختلفة بمحركات إدراك الجلال والجمال والإعجاب بصنع الخالق وحسن تدبيره وجزيل إنعامه فيبدأ الارتباط والتفاعل في داخل الشخصيَّة الإنسانيَّة لتتجه نحو الإيمان بالله–تعالى–لذلك فإنَّ العلم والمعرفة تخاطبان «قوى العقل الثلاثة» وتعملان على تهيئتها لاستقبال المدركات، وفي الوقت ذاته تعمل الفنون والآداب ومقومات الثقافة على تحريك الوجدان، وتشكيل الدواعي وبناء الضمير ليلتقي الفريقان بعد ذلك في شخصيَّة متوازنة دقيقة، منضبطة تتمتّع بالفاعليَّة، والدافعيّة العمرانيَّة للقيام بمهام الاستخلاف، وأداء الأمانة. ولا يتم ذلك بدون التربية الهادفة التي تحول ذلك إلى سلوك وممارسة.

إنَّ الحضارة المعاصرة–على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليّات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف وآداب وفنون–بقطع النظر عن طبيعتها– لم تستطع أن تقدم «أطرًا ووسائل تربويَّة إنسانيَّة هادفة» يمكن أن نجد فيها ما يساعد الإنسان على تقويم نفسه وتهذيب سلوكه وتربية ذاته.

٣) العمران :

ثم يأتي «العمران» بعد «التوحيد» و«التزكيّة» وهو ثالث «القيم العليا الحاكمة». و«العمران» جوهر الفعل الإنسانيّ في الكون وغايته، وبه تتجلّى استفادة الإنسان من التسخير الإلهيّ للكون، وجعله تحت تصرّف الإنسان المستخلَف ؛ ليحقق غاية الحق من الخلق في إعمار الكون، ويبرز دليل الخلق والإبداع والعناية باعتبارها من أهم الأدلة الدالة على وجود الله سبحانه وتعالى، والعمران عندنا شيءٌ والمدنيَّة والحضارة شيءٌ آخر، فالعمران كما أفهمه : أن تقام مدنية وتُبنى حضارة، ويُبعد الإنسان عن البداوة والتعرُّب ليوضع في إطارٍ مدنيّ أو حضاريّ لكنّه مصحوبٌ بقيمٍ وضوابط تسودها أهداف وغايات عمليَّة الاستخلاف–كلها–بسائر مراحلها بدءًا من إبرام العهد بين الله والإنسان، ثم استخلاف الله للإنسان في الأرض، ثم تخييره بين الحريّة والإرادة والتخيير، وبين التسخير، مما جعل حريَّته وإرادته أمانة إلهيّة لديه، ثم تأتي مرحلة الموت والانتقال إلى الدار الآخرة التي هي الحياة الحقيقيّة، التي يدخل فيها الإنسان مرحلة الجزاء ؛ فإما أن يذهب إلى الجنة وإما أن يذهب إلى النار. فكل ما يترتب على ذلك تشاد به المدنية ويؤثّر في الحضارة ويجري عمليَّة تطوير للمدنيَّة والحضارة لتصبح عمرانًا فيما نفهمه بقطع النظر عن اصطلاح آخرين على معانٍ أخرى فذلك الأقرب لتنبيهات القرآن الكريم الذي فرّق بين البداوة والتعرُّب، وبين الإقامة في المدينة والهجرة إليها، ولذلك اخترنا أن نعطي للعمران باعتباره أحد المقاصد القرآنيَّة العليا هذا المعني الشامل للمدنية وللحضارة وللنظم التي لابد منها لتستقيم الحياة ويبرز دور القيم فيها.

فكل ما يُنافي هذه القيم المطلقة الثلاثة وهي في الوقت ذاته المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة من علمٍ أو معرفةٍ أو عملٍ فلابد أن يرد إليها ويحتكم فيه إلى مضامينها.

وهذه المقاصد العليا والقيم المطلقة من الممكن تفعيلها في سائر الشئون والشجون خلافًا لما تعارف عليه علماؤنا من مقاصد لازمة غير متعدية وليس من السهل تفعيلها لإنَّها أخذت شكل حِكَمٍ تساعد في ترسيخ الإيمان بصلاحيّة أحكام الشريعة ودقّتها واستقامتها وما فيها من منافع للخلق. ويقف الأمر عند ذلك. ومن هنا فقد اختلف أهل العلم في التعليل بالحكمة، وفرّقوا بينها وبين العلة بأنَّ الحكمة أمرٌ لا يتعدّى إلى سواه ولا يمكن أن يُبنى عليه شيء من التعدية حتى في مجال القياس في حين أنّ العلة اعتبروها شيئًا يمكن تعديته إلى سواه ويمكن أن يُبنى عليها قياس. أما المقاصد العليا هذه فإنَّها متعدية بطبيعتها ومن الممكن تفعيلها بآليَّاتٍ تتصل بمفاهيمها. وسنتناول ذلك لاحقًا.

إنَّ القرآن–وحده–القادر على أن يحمي البشريَّة وإنجازاتها ويمنعها من العودة إلى نقطة الصفر أو البداية أو الجاهليّة الأولى، ويحمي لها مقاصدها وقيمها، وذلك لو أصاخت البشرية السمع لهذا القرآن، وأصغت إليه، وتعلمت (التوحيد) من محكم آياته، وتعلمت منه منهجًا شعاره ودثاره : (الله أكبر) و(الله أعلم).

لكن مشكلة البشريّة الأخرى أو أزمتها الإضافيَّة أنَّ القرآن بأيدي أُمَّة جاهلة تعيش حالة (الاسترخاء الحضاري والغياب) وهي حالة خطيرة أشبه بحالة الطفيليّ العاجز المسترخي الذي يعيش على ما عند الآخرين ولا يبالي. فهي أُمَّة لا تعاني الأزمة ولا تشعر بها لتخلفها، وبالتالي فهي لا تدرك أزمتها ولا أنَّ العالم في أزمة، وأنَّ بيدها الحل الشامل لأزمة العالم المعاصر، والعالم الغربيّ المدرك للأزمة، والذي يعاني منها حرّم على نفسه الاقتراب من القرآن ؛ لإنَّه نظر إليه من خلال نظره إلى لاهوته، وما ينطوي عليه من أزمات، إضافةً إلى أنّه نظر إليه نظرة أخرى من خلال حالة البلاهة والبلادة والاسترخاء الحضاريّ الذي يعيشه المسلمون، فظن أنَّ القرآن مسؤول عن حالتهم تلك ؛ ولم يستطع أن يدرك أنَّ هجرهم للقرآن هو المسؤول عما هم فيه من تردي.

إنَّ التوحيد والمعرفة التوحيديَّة هما اللذان منحا العمران الإسلاميّ هويّته الإسلاميَّة الخاصة المتميّزة على سائر المستويات بحيث لم يستطع أي عمران آخر أن ينافس العمران الإسلاميّ فيما حقّقه في سائر المستويات خاصة الإنسانيَّة منها.

كما أنَّ تألُّق عمراننا ارتبط بمدى انعكاس التوحيد عليه ارتفاعًا وانخفاضًا، وفترات العمران الحقيقيّ تمت في فترات تمكّن التوحيد فيها من القلوب والعقول ونظم الحياة. كما أنَّ فترات التراجع في تاريخ هذه الأُمَّة ارتبطت بفترات خبت فيها أنوار التوحيد فضعفت فيها تجليّاته على مختلف جوانب حياة الأُمَّة.

أمَّهات القيم :

١. الإنسانيَّة :

الإنسانيَّة قيمة بها نختلف عن بقية المخلوقات، تتحقق الإنسانيّة بالتوحيد والتزكية كما تتحقق بالتقوى والعلم والسلوك، والتكريم الإلهيّ وما تفرع عنها. ولقد كرّم الله تعالى الإنسان في الكثير من الآيات، منها قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا ﴾(الإسراء : ٧٠)، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام : ١٦٥)، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف : ١١،١٢). ووردت الأحاديث لتؤيد هذا التكريم فروي عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-يَقُولُ « مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا أَهَانَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[٨].

[٨]أخرجه أحمد في مسنده، (٤٤\٣١٦).

وقال القرطبي–رحمه اللّه تعالى–في قوله تعالى : "وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا" بعد أن ذكر أقوال العلماء فيما فضّل به الإنسان : «والصّحيح الّذي يعوّل عليه أنّ التّفضيل إنّما كان بالعقل الّذي هو عمدة التّكليف، وبه يعرف اللّه ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ... ».[٩]

إنَّ الفلسفات البشريّة ومصادر المعرفة الإنسانيّة مازالت تتخبط في مواقفها من معظم القضايا الأساسيّة، مثل حقيقة الإنسان ومكانته ودوره في الحياة، وعلاقته بالطبيعة، وحقيقة الحياة، وحقيقة الموت، والتاريخ، والصيرورة، والزمن، وعلاقة الخالق بالمخلوق، والحق والباطل، وغيرها من الأمور التي تشكّل الرؤية التوحيديّة فيها أهم المعايير التي يزن الإنسان بها نشاطه النظري والعملي، وعليها يقيم موازين التفسير والتقويم لكل ما حوله، ويبني على أساسها علاقاته بالواقع الاجتماعي بجوانبه المختلفة. ولذلك فإن وصول البشرية إلى منهج معرفي سليم تعززه وتتظافر معه نماذج معرفية تتصل وتنبثق من نظام معرفي كامل، أمر في غاية الأهمية فإنه لا يمنح الإنسان القدرة على إدراك وفهم ما حوله والإجابة عن (الأسئلة الكليّة النهائية)، وتفسير سائر ما يعرض له في الحياة، ويفتح أمامه سائر الآفاق المعرفية مثل (التوحيد). فالتوحيد هو المفتاح الذي يفتح مغاليق سائر تلك الأمور وسواها.

لقد تجاذبت الإنسان في عصور مختلفة نظريات معرفة متنوعة، توزعت مواقف البشرية بينها، وتنوعت وفقا لها مواقفهم من المعرفة وقضاياها ومصادرها، وكيفية الوصول إليها، وتحديد آلة المعرفة لدى الإنسان، أهي العقل أم القلب أم النفس ؟، والقائلون بأنّها العقل ذهبوا مذاهب مختلفة في وحدة العقل الإنساني وتعدده، أو تعدد مستوياته إلى : العقل الهيولاني، والعقل بالملكة، والعقل بالفعل، والعقل المستفاد، كما ذهب إلى ذلك ابن سينا[١٠] والرازي [١١] وغيرهما، متأثرين بمن سماه الفخر الرازي في كتابيه (المطالب العالية) و(الملخص في الحكمة والمنطق) بالإمام أفلاطون[١٢].

---

[٩](تفسير القرطبي : (١٠/ ٢٩٥).)

(١٠) راجع (في النفس والعقل) د. محمود قاسم، ص ١٩٩ وما بعدها.

أما التوحيد فيحصر مصادر المعرفة بمصدرين اثنين لا ثالث لهما هما : الوحي والوجود، والعقل بينهما وسيلة وأداة معرفة واستنباط وحدس وإدراك، بل وتوليد لأبعاد أخرى في الوقت ذاته. وفي الوقت نفسه يصنف التوحيد المعرفة إلى : سمعيات، ينحصر مصدر معرفتها بالسمع والنقل ؛ ولابد من تلقيها بطريق صحيح، وإلى تجريبيَّات، وطبيعيَّات، ضروريَّة أو كسبيَّة، إلى غير ذلك من تفاصيل.

٢. المعرفة :

ثمّة نوعان من المعرفة لكل منهما منهجيّته ووسائله وأدواته ومصادره :

أولهما : المعرفة الدينيّة، وهي معرفة بدأت بتعليم الله-تبارك وتعالى-لآدم الأسماء، وتتابعت النبوات والرسالات في تكميل جوانبها حتى استوت على سوقها منهجيّة معرفيّة كاملة في القرآن الكريم، قابلة لاستيعاب متطلبات الإنسان المعرفيّة في سائر عصوره وأزمنته وعلى اختلاف بيئاته وأنساقه الحضاريّة. وذلك إذا قرئ القرآن الكريم العظيم بتلك المنهجيّة المعرفيّة القائمة على الجمع بين القراءتين : «قراءة الوحي وقراءة الكون».

أمّا النوع الثاني : فهي المعرفة البشريّة الوضعيّة التي توصل الإنسان إليها دون أن يعتمد على الوحي أو يربطها بمنهاجيّته، أو يلاحظ فيها الحضور الإلهيّ في المعرفة والطبيعة والإنسان. فهي تفترض أنَّ الحياة تعتمد على طرفين لا ثالث لهما : «الكون أو الطبيعة والإنسان»، وأي بُعد آخر جاء به الدين لا تلتفت إليه. والجدير بالملاحظة أن هذه المعرفة الوضعيّة التي حصرت العلاقة الكونيّة بين الإنسان والطبيعة، ونفت البعد الغيبي أو تجاهلته. أصبحت بعد ذلك نهضة أوربا وثوراتها المتتابعة التنويريّة ثم العقليّة ثم العلميّة هِيَ المعرفة المهيمنة على العالم-كله- ومنه العالم العربيّ والإسلاميّ.

---

(١١) التفسير الكبير (٨٩/٢٠)، ولوامع البينات (٢١٣)، وفخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية ص٤٩٠.

(١٢) المطالب العالية (٢٦٨/٢)، والملخص في الحكمة والمنطق (ب/٧٤) وفخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية (٥٠٦).

إنَّ التوحيد من أهم المحركات الموضوعيَّة المؤثرة في اتجاه إفراز الدواعي والقوى المحركة للمعرفة وتحديد مضمونها وتفسير الغامض والمبهم منها، والإجابة عن أسئلة (ما هو ؟) و(أيّ شيء هو ؟) وماذا ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ بل وتحديد ما يمكن التساؤل عنه وما لا يمكن أو لا يحسن السؤال عنه.

فالتوحيد يمثل حجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الكون والحياة والإنسان، والتوحيد يوضح حدود وأبعاد الدور الإنسانيّ في الكون والحياة. وفي الوقت نفسه يحقق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضروريَّة لبناء فاعليَّة الإنسان، وتشكيل دافعيَّة العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفيَّة والثقافيَّة السليمة لدى الإنسان.

لقد أمر الله تعالى نبّيه–صلى الله عليه وآله وسلم–في مفتتح نزول القرآن وعند بدء الوحي بقراءتين. فقال تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {١/٩٦} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {٢/٩٦} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {٣/٩٦} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {٤/٩٦} عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق : ١—٥). وبما أنّ القرآن ليس فيه تكرار ولا ترادف. ولا تحتاج آياته الكريمة إلى استعمال المؤكدات فإنَّ كل كلمة من كلماته—وإن بدت مرادفة أو مماثلة لأختها—فإنها تشتمل على معنى آخر إن لم تدل عليه بلفظها وبالاستعمال القرآني لها فإنّها تدل عليه في سياقها[١٣] وسباقها[١٤] وموقعها. وذلك من دلائل إعجازه الذي تعالى به على كلام المخلوقين. ولذلك فإن صيغة الأمر بالقراءة الذي جاء مرتين في هذه الآيات الخمس الأولى لا تعني التوكيد أو الترادف أو التكرار كما ذهب

---

[١٣] المراد "بالسياق" : يعد" السياق" في القرآن هو المنتج للدلالة والموجه إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليُّون قد أبدوا اهتمامًا شديدًا بدلالة السياق فالسياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد... وذلك لأن دلالة النصوص نوعان : حقيقيَّة وإضافيَّة، فالحقيقيَّة تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافيَّة تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجودة فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين في ذلك..." راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٩١٤–١٠) وإعلام الموقعين (١/٣٥٠– ٣٥١) وقد أوردت ابنتنا د. رقية تفاصيل هامَّة في "دلالة السياق" وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغني الباحث في هذا المجال عن مراجعته، فراجع ذلك في رسالتها القيمَّة "أثر العرف في فهم النصوص : قضايا المرأة أنموذجًا"رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر في دمشق عام ١٤٢٤ هـ /٢٠٠٣م ص٢٦٠–٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا د. إبراهيم أصبان التي نال بها درجة الدكتوراه بعنوان "دلالة السياق في القرآن" لم تطبع طبعة عامة.

[١٤] أما السباق : فهو لصيق جدًا بالسياق، وكبير الأثر في إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، واعتبارها حلقة في سلسلة مترابطة.

إلى ذلك بعض المفسرين[١٥]، بل تدل على أمرين بقراءتين، لكل منهما معناها المراد بها، ولكل منهما خصائصها، ومجالها ومتعلّقها، ومناهجها وكيفيّاتها وميادينها. يعّضد هذا ويعزّزه. أنّ الأمر بالقراءة في الآية الأولى اقترن "باسم ربَّك" وكانت صلة الموصول-"الذي" –هي الخلق في : ﴿... الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ فهي أمر بتحصيل فعل القراءة وممارسته مع الاستعانة بالله-تعالى-فهو ربك الذي يعلم أنَّك ﴿ مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ (العنكبوت : ٤٨)، ولذلك فإنَّه "سيقرؤك فلا تنسى" خلافًا لأي قارئ آخر معرَّض للنسيان والخطأ. فاقرأ باسمه هو، واستعذ به من الشيطان الرجيم. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل : ٦٨)، والذي خلقك من علق، وخلق النوع الإنسانيّ– كلّه –منه قادر على أن يخلق فيك فعل القراءة، ولو لم تكن قارئًا من قبل. وكل ما عليك أن تقرأ ما سنوحيه إليك وهو القرآن والذي خلقك ورعاك وأنشأك من علق، وخلق كل شيء فقدّره تقديرًا قادر على أن يعلمك القراءة، كما علم آدم الأسماء كلّها، وكما علّم أباك إبراهيم وسواه من الأنبياء والرسل. فاقرأ باسمه وعلى اسمه ومعه وفي ذلك تنبيه من بداية الأمر على انفصاله-صلى الله عليه وآله وسلم-عن قومه الذين كانوا يبدؤون أفعالهم مستعينين باللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وكلّها أوثان يصنعونها بأنفسهم، ولا تصنعهم، ويخلقونها ولا تخلقهم.

---

[١٥] نحو القرطبي الذي اعتبر "اقرأ" الثانية توكيدًا، وجعلها تمام الآية الأولى (٢٠ / ١١٩) والألوسي (٢٩ / ١٨٠)ويشير عدم ذكر فعل "اقرأ" الثانية لدى الطبري إلى اعتبارها مرادفًا، أو توكيدًا فراجع (٣٩ / ٢٥٣) منه. أما الرازي فقد أعطى لكل من الفعلين معنى يخصه فقال- ناقلًا عن بعضهم : "اقرأ – أولًا – لنفسك. والثاني للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم. أو اقرأ في صلاتك والثاني خارج صلاتك" فانظر تفسيره (٣١ / ١٦). وقال البغوي في تفسيره "معالم التنزيل" : "إقرأ : كرره تأكيدًا، ثم استأنف.. وربك الأكرم" (٤ /..) أما ابن كثير فلم يذكر عن "اقرأ" الأولى والثانية شيئًا (٨ / ٤٥٩) ط دار الشعب القاهرة. وذهب ابن الجوزي في زاد المسير (٩ / ١٧٦) إلى أنها للتوكيد كذلك. وابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير (٢٠ / ١٣٣) أورد ثلاثة أقوال : الثاني منها : ".. أن الباء في "باسم ربك" للمصاحبة، والمجرور في موضع الحال من ضمير "اقرأ" الثاني مقدّمًا على عامله للاختصاص

– أي : اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبًا قراءتك اسم ربك فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله، ويكون هذا اثباتًا لوحدانيّة لله بالإلهيَّة...". وهذا هو الأقرب لما ذهبنا إليه. وأما الطوسي فقد اعتبر الباء زائدة، ومفعول "اقرأ اسم ربك" وأما " اقرأ" الثانية فمفعولها المقدّر هو "القرآن" فانظر التبيان (١٠ / ٣٧٩)

القراءة الأولى :

الأمر الأول بالقراءة–إذًا– هو أمر بقراءةٍ[١٦] باسم الله أو على اسمه–تعالى–ومعه، لهذا الوحي النازل الذي سيتتابع نزوله حتى يتم قرآنًا كريمًا مجيدًا مكنونًا مفصَّل الآيات، محكمًا مترابطًا متماسكًا متناسبًا متشابهًا تتلوه يا محمد على الناس، وتبيِّنه لهم ليتعلّموا منه الحكمة والهداية والرشد فتزكو نفوسهم، وتطهُر حياتهم، ويهتدوا به في أداء مهام الاستخلاف والقيام بواجب الائتمان، وحق العمران وحين رد رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلّم–بأنه ليس بقارئ[١٧] لاشك أنَّه فهم المطلوب، وهو قراءة ما سيملى عليه وهو لا يعرف القراءة والكتابة، وليس له من العلم ما يقرؤه، ولذلك فإنَّه تعالى قد ربط القراءة "باسم ربك"، فكأنَّه قال له : إنَّك لن تكون وحدك في أداء هذا الفعل الذي لا تعرفه، بل سيكون معك ربك الذي أعطاك الكثير وهو قادر على أن يعلمك كيفيَّة أداء ما أمرك به، ويزيد على ذلك : كما علم آدم الأسماء كلّها، وكما علم إبراهيم وموسى وعيسى وسواهم من النبيين والرسل–عليهم السلام–من قبلك، فاقرأ باسمه واستعن به في القراءة يعنك ويصحبك ويكن معك فيها، وفي بيانها وتعليمها وإقامة الحجة بها على الناس.

وذكر الرب–جل شأنه–الإنسان، وذكر خلق الإنسان بالذات فيه طمأنة لرسول الله–صلى الله عليه وآله وسلم–بأنَّ منحه القدرة على القراءة ليس بالأمر الصعب على ربِّه الذي خلق كل شيء، وخلق الإنسان من علق. " بل هو عليه هيِّن" كما أنَّ في ذكر الخلق تهيئة لذهنه الرشيد ونفسه الشريفة–صلى الله عليه وآله وسلم–لبيان النوع الثاني من القراءة.

---

[١٦] راجع الهامش السابق (١٣) وقارن بتفسير الرازي فقد ضَّعف ما ذهب إليه جل المفسرين من القول بزيادة "الباء" في "باسم ربك"ورجح أن الباء ليست زائدة وذكر لها ثلاثة أوجه (٣١ / ١٣ – ١٤) ط دار الفكر. وانظر التحرير والتنوير (٢٠ / ٤٣٦) وذكر أن "الباء" للاستعانة أو المصاحبة أو بمعنى "على"، وذلك قريب مما ذكر الفخر. ومثله في روح المعاني للألوسي (٢٩ / ١٧٩) ط مكتبة دار التراث – القاهرة بدون تاريخ. وقال الطباطبائي في الميزان : "إن الباء للملابسة" (٢٠ / ٣٢٣)

[١٧] اشارة لحديث "بدء الوحي" الذي أخرجه البخاريّ في باب "كيف بدأ الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلّم – وقول الله – جل ذكره– : "إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده" الحديث رقم (٢ و٣).

القراءة الثانية :

ألا وهي قراءة الكون والنظر في الخلق، ومعرفة ما دونته البشريَّة من فهم له، وتجارب فيه بأقلامها، فهذه القراءة–هي التي صاغ القرآن المجيد بحسبها "دليل الخلق ودليل الإبداع، والتكليف بالنظر العقليّ في الوجود، والنظر في آثار الأمم السابقة، ومعرفة ما حدث لها". فبذلك تكون القراءة المأمور بها قراءتين : قراءة في الكون المخلوق، وكل ما يتعلق به من عالم الخلق، والتشيُّؤ بما في ذلك تراث الأمم الذي دونته وآثارها، فبالقراءتين تدرك الفروق بين الأمم التي استفادت بالوحي واتبعته، واستنارت به، وبين الأمم التي تجاهلته، وتعاملت مع الطبيعة أو الكون–وحده–دون استنارة بهداية الوحي. أو أهملت الكون والتجارب البشريّة وعبر التاريخ ودروسه، وقراءة الوحي المنزل على قلب رسول الله–صلى الله عليه وسلم وآله وسلّم–بحجة الاكتفاء بالوحي والاستغراق فيه. فمن أراد أن يقرأ الوحي بدقة وتدبُّر فإنَّه لا غنى له عن قراءة الكون وما فيه بالنظر في خبرات الأمم السابقة وتجاربها، ومعرفة الحضارات الغابرة وكيف سادت ثم بادت أو اندثرت. فلقد اعتنى القرآن به عناية فائقة، ولفت الأنظار إلى ذلك في سور عديدة، وآيات كثيرة، لما في ذلك من عبر ودروس وعظات تجعل السالف قادرًا على إفادة الخالف مهما طال الأمد فيما بينهما. وتجعل الخالف يرى نتائج أفعال من سبقوه فيدرك أنَّ أفعاله–أيضًا–سيكون لها من الآثار مثل ما لأفعال من سبقوه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وفي ذلك تكريس لمبدأ «المسؤوليَّة الفرديَّة، والأثر الجماعيّ أو المجتمعيّ» فيتعلم الإنسان بذلك كيفيّة الانضباط في أفعاله وتصرفاته، ويتهيَّأ عقله ونفسه لقبول «مبدأ الجزاء والعقاب والثواب» ويتعلم النظر فيما يرث عن الآباء نظر الفاحص الناقد المعتبر فيتخلص من هيمنة مبدأ "الآبائيّة" وتقليدها ومتابعتها على الحق وعلى الباطل، ويدرك كذلك أنّ للأمم التي خلت لها ما كسبت، ولنا ما نكسب ولا يغني أحد عن أحد من الله شيئًا.

فهما–إذًا–كتابان تجب قراءتهما–معًا–للخروج من إسار الأُميَّة بكل أشكالها ومعانيها : كتاب منزل متلو معجز وهو القرآن، وكتاب مخلوق مفتوح وهو هذا الخلق والكون والتجارب البشريَّة فيه، ومنه التعامل مع

الإنسان نفسه، فهو جزء من الخلق وابن شرعيٌّ للطبيعة : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه : ٥٥).

القراءة إنسانيَّة :

وهذه القراءة تكون ابتداءً من الإنسان، فهو الذي لابد له من قراءتهما–معًا–لتوجد لديه المعرفة العمرانيَّة الكاملة التي تمكن الإنسان من الوفاء بالعهد والقيام بمهام الاستخلاف، وأداء حق الأمانة، والقيام بمقتضيات العمران. والنجاح في اختبار البلاء. وهي معرفة لا تقوم على التلقي والتلقين وحدهما، بل على الأخذ عن الغير–أيضًا–من سابقين ولاحقين بالمراجعة والمطالعة وقراءة الكتب وكتابتها وتناقل الخبرات والمعارف بين البشر وعدم الزهد في المعرفة من أي وعاء خرجت، والتعامل المنهجي معها.

٣. الحريَّة :

الإنسان والطبيعة في القرآن :

نصّ القرآن على بنوَّة الإنسان للأرض وللطبيعة دون تجاهل للفوارق بين الأم والابن ودون نفي للخصائص الذاتيَّة التي تقرّر الاتّصال بينهما، ولا تمنع الفصل أو تصادر على الفوارق، أي أنّ الإنسان ابن الطبيعة وابن الأرض والسيد المستخلف فيها في الوقت نفسه، والقرآن المجيد لا يرفض المبدأ القائل : إنَّ الإنسان ابن الطبيعة، وأنّه متولد عنها–كما أسلفنا–فوجود النفس فيه لا يخرجه عن بنوَّته لها ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه : ٥٥).

فآيات الخلق–كلّها–تؤكد بنّوة الإنسان للطبيعة، وأنَّ استخلافه وتصدّيه لحمل الأمانة والمسئوليّة عن إعمار الكون وضمّه معه إلى قافلة تسبيح الله ﷻ لم يخرجه ولن يخرجه عن ذلك، وكذلك تسخير الطبيعة له لم يخرجه عن بنوته تلك لها.

ولم يفرّق القرآن بين الإنسان والطبيعة إلاّ في قضايا محدودة لا تنفي تلك البنوَّة، تتلخص فيما يلي :

١-الإنسان مستخلف، والطبيعة مستخلف فيه.

٢-الإنسان أُعطي أمانة الاختيار، والكون قد سُخِّر وفقًا لسنن وقوانين يشاركه الإنسان في بعضها أي : في جانبه الطبيعيّ من سنن الحياة والموت، وضرورات الحياة فقط.

٣-الإنسان يخاطب بخطاب إلهيّ موحَى بالطرق التي حدَّدها الله ﷻ لوصول الوحي إلى الأنبياء والمرسلين، والطبيعة توجَّه بقوانين وسنن ثابتة.

٤-الإنسان مطلق في إنسانيّته وكونيّته ينتهي إلى الخلود، والكون المطلق سينتهي إلى الاستبدال.

٥-الإنسان يثاب ويعاقب على مَا قدّم باعتباره مطلقًا، والطبيعة خلافه في هذا إلاّ إذا عددنا عمرانها مقابل ثواب، إذ فيه تحقيق الغاية من وجودها، وخرابها أو فسادها بمثابة العقوبة لها، لإنَّ فيه تفويتًا لذلك.

٦-الإنسان نفس وجسم وعقل، وليست الطبيعة كذلك.

٧-الإنسان-بناءً على مَا تقدم-يوصف بالصلاح والفساد والإيمان والكفر والنفاق، والحريّة والعبوديَّة والظلم والاقتصاد والسبق بالخيرات، وتعتريه عوارض كثيرة كاليقظة والغفلة والذكر والنسيان، والاختيار والإكراه، وليست الطبيعة كذلك.

و«النفس الإنسانيَّة» ليست عالمِا منفصلا عن الجسد الإنسانيّ ومكوناته المتَّصلة بالعالم الطبيعيّ، كما تصورها لنا عينيَّة ابن سينا التي مطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع ***** ورقاء ذات تعزز وتمنّع

تبعًا لأرسطو وأتباعه من فلاسفة الإغريق، بل إنّ الإنسان-في المنظور القرآنيّ نفسًا وجسدًا-ينتمي إلى العالم الطبيعيّ فهو ابن الطبيعة والمستخلف فيها، واستخلافه فيها، وتكريمه بالعهد وأمانة الاختيار والتكليف والابتلاء لا يفصله عن الطبيعة، ولا يخرجه عنها، وهذا مالم يستطع إدراكه-لحد الآن-سائر المشتغلين بالتفسيرات والتأويلات الدينيَّة من علماء اللاّهوت في سائر الأديان، ومنهم علماء الكلام المسلمون ؛ «فالنفس الإنسانيَّة» ليست كيانًا مستقلاً يتعامل مع الله ﷻ بإرادة مستقلة، منبتّة عن التفاعل مع العالم

الطبيعيّ، بل هِيَ جزء من ذلك العالم، وما يترتب على ذلك خطير جدًا ؛ إذ إنّ النفس تمثّل «اللامرئيّ» المتعالي كونيًّا، والمرتبط بالجسد المرئيّ.

واقرأ بدايات سورة النحل من أوّلها حتى الآية التاسعة والعشرين، ثم اقرأ معها سورة الشمس لتجد في آيات سورة النحل ذكر الوحي ومضمونه وهدفه الأساسيّ، ثم يبدأ ببسط دليل الخلق، وربطه بالحق ليقود الخلق إلى الحق، وفي الآية الرابعة من السورة ينبّه إلى خلق الإنسان من نطفة، وكيف يتطور إلى خصيم مبين يجادله ﷻ في ألوهيّته له وربوبيّته، وكونه خصيمًا مبينًا فعله النفسيّ، وتتوالى الآيات في ذكر الدفء والجمال والإعانة والزينة ولذة الشراب والظل والحلية، والامتنان باختلاف الألوان، وما يعطيه من متعة للنفس، هذا الربط الشديد بين الجسد الإنسانيّ والنفس الإنسانيّة والعالم الطبيعيّ لا يسمح بفصل «النفس الإنسانيَّة» عن العالم الطبيعيّ للادّعاء–بعد ذلك–أنَّ النفس يمكن أنْ تتعامل مع الله ﷻ بخطاب وإرادة مستقلة منفصلة عن الجسد والعالم الطبيعيّ الَّذِي ينتمي إليه، بل إنّها تتعامل مع الله في إطار انتمائها إلى الجسد والعالم الطبيعيّ نفسه، وسورة الشمس حين تربط بمقدمات سورة النحل وأشباهها من السور التي تناولت قضيّة الخلق توضح ذلك بجلاء شديد، واتل بتدبُّر مقدِّمات سورة الحج، ثم مقدِّمات سورة المؤمنون وكثير غيرها.

وتظهر أهميَّة سورة الشمس في بيان هذا المحدّد المنهاجيّ الهام في أنّ السورة قد بدأت بذكر الشمس وبصيغة القسم لتستدعي إلى الأذهان المجموعة الشمسيَّة، وعلاقتها بالحياة والأحياء في إطار تلك التقابلات الرائعة بينها وبين أبرز مَا يترتَّب عليها، أو فصِّل بها ؛ ليأتي في الآية السابعة ذكر النفس الإنسانيَّة وكيف سُوّيت في إطار ذلك التقابل لتنطوي على متقابلين كذلك «فجورها وتقواها» ليأتي دور الإنسان وفعله وقيمة ذلك الفعل وخطورته في تدسيتها أو تزكيتها. إنّ تعقّلنا وتفكُّرنا وتذكُّرنا وتدبُّرنا لهذا سوف يقودنا إلى الوصول إلى «جدل الطبيعة» القائم على تفاعل نقيضين لتوليد ثالث.

و«جدل الإنسان» قائم على تفاعل النفس والجسد ؛ فالنفس الإنسانيَّة قد تم تكوينها وتخليقها في إطار «جدل كونيّ» يستوعب ويتجاوز «نظريّات النشوء والارتقاء والتطوّر» ويتجاوزها ؛ لأنّ تلك النظريّات–كلّها–لم تلتفت إلى «البعد اللامرئيّ» وكيف تم غرس «اللامرئيّ» أو تخليقه في المرئيّ، ألا وهو الجسد ؛

ليتفاعل معه فيعطي ذلك الناتج السلوكيّ المعبِّر عنه «بالتزكية والتدسية» بعد أن تمت تسوية النفس ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس : ٧) فوُضعت في إطار واعٍ مختار.

إنّ «نظريّات النشوء والارتقاء» قد تعاملت مع الجسد الإنسانيّ وأعراض النموّ التي تعتريه، وحين جاءت «للنفس» لم تجد بُدًا من إخضاعها للشروط الحيوانيّة الغرائزيّة وتلبيتها وحرمانها، والدوافع وكيفيّة تكونها، ونظريّات تفسير قضايا اللّذة والألم، فاستلبت «النفس» لصالح الجسد وبذلك أخضعت النفس لشروط اللّذة والألم والاستمتاع، فلا غرابة بعد ذلك أنْ نجد مَنْ يطلق على الخمور اسم «المشروبات الروحيَّة» وعلى الزنا اسم «الحب» وتصبح الانحرافات الجنسيّة واللّواط والسحاق والشذوذ الجنسيّ وليدة جينات مفروضة فغابت النظرة إلى «كونيَّة النفس» وتولدُّها عن ذلك الجدل ؛ ولذلك فإنّها قد ألهمت نقيضين هما : «فجورها وتقواها» والفجور بسيط، وقد يصبح مركَّبًا، والتقوى مركَّبة وقد تكون بسيطة.[١٨]

ويترتّب على ماذكرنا أنّه لا موضع إطلاقًا للجدل اللاّهوتيّ في سائر الأديان عن قضايا «الجبر والقدر»، فكل هذه القضايا قد بُنيت على الفرضيَّة الخاطئة بانفصال النفس واستقلالها عن الجسد، بل وصراعها معه ؛ ولذلك فإنّها تحيل المسئوليّة عن أفعالها خاصَّة السيّئة منها إلى الله تنزه وتعالى أو إلى أيّة جهة خارجيَّة حتى لو لم تكن تؤمن بما أحالت عليه : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأنعام : ١٤٨-١٤٩) واتل الآية (٩٩) من سورة يونس.

---

[١٨] وقارن بالدراسة العميقة المتميزة لأخينا محمد أبو القاسم_ رحمه الله_ في : العالميّة الإسلاميّة الثانية : جدلية الغيب والإنسان والطبيعة (بيروت : دار ابن حزم، ١٩٩٦) جزءان وقد أكد ب.ف. تسكينر.B.F.Iskinner ضرورة أنْ يتبع علم النفس الفيزياء والبيولوجيا في رفض شخصنة الأسباب، واعتبر أنَّ العامل الطبيعي هو الذي يحدد بيئة الفرد، وأنَّ استقلال الفرد عن بيئته أمر غير موجود. واعتبر مقولة : "إنَّ الإنسان ليس حرًا" فرضًا أساسيًا في تطبيق المنهج العلمي في دراسة السلوك الإنساني. وفي الفلسفة أكد د.م. آرمسترونج أنَّ هناك أرضية علمية عامة للتفكير ترى أنَّ الإنسان ليس إلا ميكانيزمًا طبيعيًا، وأنَّ الحالة العقلية في الحقيقة ليست سوى حالة فيزيقية لجهاز عصبي مركزي ومن ثم يمكن وضع حساب فيزيائي كيميائي كامل للإنسان. نقلاً عن : نصر عارف، نظريات السياسة المقارنة ومنهجية دراسة النظم السياسية العربية : مقاربة إبستمولوجية (فرجينيا : جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية،١٩٩٨م) ٢٥.

وقد اعتبر القرآن الكريم خلق السموات والأرض أكبر من خلق الإنسان، فقال : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر : ٥٧)، وهذه الآية حين نفهمها في إطار المنهج نستطيع أنْ ندرك أهميّتها البالغة ؛ لإنَّ «المنهج العلميّ» الَّذِي أثبت صلاحه في الجملة قد نبَّه إلى نوع من المقابلة بين الإنسان والطبيعة يمكن أنْ تفيد بفحوى الخطاب إمكان إخضاع الأصغر لمنهج دراسة الأكبر وضبط مَا يتعلق به بذلك المنهج الَّذِي يمكن أنْ يجمع بين الإنسان والطبيعة ؛ ومن هنا فإنَّ فلسفة العلوم الطبيعيَّة قد تناولت الإنسان ووضعته تحت جناحيها بشكل لا يرفضه المنهج القرآنيّ، وعن ذلك انبثقت نظريَّات الوحدة أو الاتّحاد بين العلوم الطبيعيَّة والإنسانيَّة والاجتماعيَّة ؛ فحدثت–ولا شك–نقلات هائلة، وتقدّمت تلك العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة ولاشك وبذلك صار تأثير «الذاتيَّة» فيها محدودًا ؛ ولكن لما كانت التسوية تامّة، ولم تُلحظ الفوارق التي ذكرناها بعناية فقد برزت إلى جانب ذلك سلبيّات كثيرة نجمت عن تعميم أحكام الظواهر الطبيعيَّة على الظواهر الإنسانيَّة بإطلاق–ليس هذا مجال تفصيلها–وتلك السلبيَّات يمكن استيعابها وتجاوزها بملاحظة الفوارق التي ذكرنا، وتحديد آثارها منهجيًّا، وتجاوز مَا يختزل أو يختصر كونيّة الإنسان منها قرآنيًّا.

وبالتالي فإنّ انعكاس فلسفة ومنهج ومنطق العلوم الطبيعيَّة على قضايا الإنسان الاجتماعيَّة والإنسانيَّة والسلوكيَّة لا يُستغرب من القرآن فضلاً عن أنْ يرفض، فمن مسلَّمات القرآن أنَّ الإنسان يتأثَّر بالطبيعة ويؤثِّر فيها، والجدل بين الإنسان والطبيعة دائم مستمر، وما من أحد نظَّم ذلك الجدل، ومنحه صفة الإيجابيّة مثل القرآن، فانعكاس «المبادئ النظريّة العلميّة الطبيعيّة» على مَا هُوَ إنسانيّ واجتماعيّ وسلوكيّ لا يعني إلغاء لإنسانيَّة الإنسان أو مهَّمته الاستخلافيَّة في الكون، أو إلحاقًا له بالجماد والحيوان، بل فيه تعزيز لذلك الدور، فالله ﷻ قد امتَنَّ على الناس بأنْ جعل أزواجهم منهم، وامتنَّ عليهم بأنْ أرسل إليهم من أنفسهم رسلاً وأنبياء واستخلفهم في الأرض الّتي منها خلقوا وجبلوا وإليها يعودون، يجري هذا المجرى بأنْ يكون الإنسان ابن الطبيعة المخلوق منها–هُوَ المستخلف فيها ؛ وبذلك يكون الجدل بينهما ليس ممكنًا فحسب، بل وطبيعيًّا أيضًا وسهلاً وسلسًا.

تعامل القرآن مع المكان والزمان والتاريخ والطبيعة بعامَّة بالمنهج ذاته، مع استثناءات بسيطة في الإنسان والزمان والمكان من شأنها أنْ تنبِّه إلى وجود الخالق العظيم ﷻ، وتنبِّه وتكشف كذلك عن أثر فعل الغيب في الطبيعة والإنسان مثل أثره في اختيار الأنبياء والرسل وتوقيت بعثاتهم، وتحريم وتقديس بعض الأماكن، وتحريم وتعظيم بعض الأزمنة. وهذه الاستثناءات–ذاتها–قد أُدخلت في المجال الإبستمولوجيّ التوحيديّ، والمجال المعرفيّ الَّذِي أوجده القرآن بحيث لم تُكرَّس باعتبارها معرفة لاهوتيَّة منفصلة تعتمد على الغيبيّ–وحده–دون فهم أو إدراك لعلاماته، فتنفصل عن الإطار المنهجيّ أو تتجاوزه بحيث تفقد علميّتها أو موضوعيَّتها.

ولقد أوضح القرآن الكريم أنَّ هناك تلازمًا بين الظواهر السلوكيّة والعقديّة للبشر، وبين تلك السنن الطبيعيَّة التي بمقتضاها تكون الحياة حياة طيبِّة أو معيشة ضنكًا انعكاسًا واطِّرادًا، فإذا كانت ظواهر الطبيعة قابلة للإخضاع إلى الملاحظة والتجربة والحس ومتغيِّرات الواقع ، فإنَّ الظواهر الإنسانيَّة يمكن أنْ تُعامل بالمثل ؛ وبالتالي فإنَّ هناك إمكانًا كبيرًا للكشف عن «المنهج الموحَّد» للظواهر المختلفة في الكون وفي الإنسان ؛ ليتيسَّر بعد ذلك إخضاعها للأحكام التقويميَّة والقيميَّة بدقة علميّة وموضوعيَّة.

فالقرآن يؤكّد أنَّ «الأحكام القيميَّة» التي تتغيَّاها الشريعة وتقصدها تاليةً ولاحقةً لنتائج الكشف والتوصيف والتصنيف المعرفيّ وفق المنهج بعامّة، والمنهج القرآنيّ خاصَّة يدعو الإنسان إلى الملاحظة، والنظر الدقيق في الوقائع والظواهر في حالاتها المختلفة، والنظر الدقيق كذلك في العادات والأعراف والتقاليد والوقوف على الآثار، ودراسة كل مَا من شأنه أنْ يكشف علميًّا عن طبيعة الفعل الإنسانيّ، ويساعد في بيان الوصف القيميّ المناسب له، وكذلك يكشف عن الواقع الَّذِي أدى أو يؤدّي بالأمم إلى الفلاح والنجاح، أو يقود الأمم والشعوب إلى البوار والخسران، أو يدمِّر حضارات البلدان المختلفة في مختلف فترات التاريخ التي جرى ذكرها. والقرآن وهو يقدم ذلك–كلّه–ينبّه العقل الإنسانيّ إلى بعض القوانين والسنن الاجتماعيَّة والمحدّدات المنهجيّة ليوضح بعض صفات المنهج القرآنيّ.

مفهوم الحرية مفهوم قرآني أصيل تناوله القرآن المجيد بما يزيد عن مائتي آية من آيات القرآن الكريم، وأصَّل له بشكلٍ دقيق، وكرَّسه قيمة من القيم العليا، وقد تناولت بعض الآيات معالم هذه الحرية وطرق ممارساتها وضوابطها بشكلٍ كان له أثره في تصوير القرآن الكريم للإنسان، وبناء الرؤية القرآنية له، ثم جاء الحديث الشريف الذي عُرف بـ"حديث السفينة" ليعالج ما قد يكون من انحراف في إطار الحرية وممارستها وتفعيلها في الواقع.

والحديث هو ما رواه البخاريُّ والترمذيُّ وأحمدُ وغيرهم عن النعمان بن بشير– رضي الله عنهما–عن النبي–صلى الله عليه وآله وسلّم–أنَّه قال : «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا».

وهذا اللَّفظ هو ما أخرجه البخاريّ في «كتاب الشَّرِكَة » «باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيها » وأخرج البخاري من طريق آخر عن النعمان بن بشير– أيضا–في «كتاب الشهادات » « باب القرعة في المشكلات » واللفظ الذي عرضناه من «كتاب الشَّرِكَة » صوّبه الشَّعبيُّ واختاره ورجّحه الحافظ ابن حجر، قال : لإنه يشمل الفرق الثلاث، وهي : الناهي عن المعصية، والواقع فيها والمرائي بذلك، أو « المدهن » كما في اللفظ الآخر ؛ فالذين أرادوا خرق السفينة بمنزلة الواقع في حدود الله، ثم من عداهم إمَّا منكر، وهو القائم على حدود الله، وإما ساكت وهو المدهن.

و قوله : «استهموا على سفينة»–أي : اقترعوها، فأخذ كل منهم سهمًا–أي : موقعًا منها إجارة أو ملكًا.

قال الحافظ ابن حجر « وهكذا إقامة الحدود تحصل بها النجاة لمن أقامها، ولمن أقيمت عليه، وإلاّ هلك العاصي بالمعصية والساكت بالرضا بها».

إنّ هذا الحديث قد ضربه رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلّم–مثلًا ومن شأن الأمثال أن تنفتح على معان كثيرة، ويمكن أن تضرب لصور عديدة ممّا تحتمله ألفاظها وسياقاتها على «أن لا تغيَّر في حال مضربها عن حال موردها». وقد استنبط الفقهاء من هذا الحديث فوائد جمَّة، ومعاني وفيرة، ومع ذلك فهذا الحديث المثَلُ ما يزال قادرًا على مدَّنا بالمزيد. فيمكن أن نضربَه مثلًا للأرض ووحدتها، ولسكانها من البشر ووحدة مصيرهم : فالأرضُ مثلُ السفينة، والأسرةُ البشريَّة الممتدَّة مثل ركاب تلك السفينة.

وهذه الأسهم من الأرض التي نطلق عليها أوطانًا وديارًا هي أسهم المجموعات البشريّة التي جُعلَت شعوبا وقبائل لتتعارف، وتتآلف وتتعاون على تحقيق العمران في الأرض الذي يعدُّ جوهر مهمَّة الاستخلاف فيها.

وهذا لا يعطي الحق لأيّة مجموعة بشريّة أن تتعسَّف في استعمال حقها في الانتفاع فتفسدَ في نصيبها من الأرض بحجَّة كونه نصيبها أو وطنَها ؛ فكونه دارها أو نصيبها لا يعطيها الحق في الإفساد، وتدمير البيئة أو تلويثها، أو تعريضها للخطر ؛ لإنّ الضرر لن يكون قاصرًا على ذلك الجزء، بل سيكون شاملاً في بعض الأحيان للبيت الإنساني الكبير ألا وهو المعمورة كلّها. وسيكون ضارًا بالأسرة البشريّة بمجموعها. فيجب على الأسرة البشريّة الممتدّة أن تتضافر وتتكاتف لحماية سفينة الأرض ومن عليها وما عليها من أيّة أعمال قد تؤدي إلى الإفساد في الأرض أو العيث فيها فسادًا ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة : ٦٠)، ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ (الأعراف : ٥٦).

فإنّ الآيات الكريمة التي تناولت «قضيَّة الحريَّة» جاوزت مائتي آية–ذات دلالةٍ مباشِرَةٍ عليها.

المبادئ القرآنيَّة الأساسيَّة في الحريّة :

بعدما عرضناه يمكننا أن نقول بأنّ هدى القرآن الكريم في قضية الحريَّة يقوم على المبادئ الأساسيَّةِ التالية :

المبدأ الأول : أنّ القرآن الكريم بيَّن أنّ الله–تبارك وتعالى–استشهد الإنسان على نفسه (والشهادة ولاية) ليقر بربوبيَّة الله–تعالى–له وألوهيَّته، وليقرَّ بأنّه خَلْق الله–تعالى–وعبدُه ؛ لإنّ هذا الإقرار—هو حجر الزاوية في تأسيس العلاقة بين الله–سبحانه–وبين الإنسان، كما أنَّه شديد الأهميَّة في تأسيس العلاقة بين الإنسان والإنسان، والإنسان والطبيعة. وهذا الاستشهاد من الله–تعالى–والإقرار من الإنسان–هو ما دلت عليه آيات العهد : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)﴾ (الأعراف : ١٧٢–١٧٤)

المبدأ الثاني : بعد أن تم تأسيس العلاقة بين الله–تبارك وتعالى–وبين الإنسان تولى—جل شأنه–أمر تخيير الإنسان بين أن يكون مطبوعا على التحرُّكِ التلقائيَّ–وفق النظام الكوني وبين أن تكون له حريَّته الذاتيَّة ؟!. وقد أوضح الخالق البارئ المصور للإنسان أن صفة هذه الحرية أن تكون أمانة بين يديه عليه أن يحفظها ويصونها، فهي « أمانة الاختيار» أو « أمانة الحريَّة » أعطى بمقتضاها أن يختار ما يريده من حالات نشاطه الفرديَّ الإراديَّ إيجابًا أو سلبًا. وأنَّه سوف يكون مسئولا عن نتائج استعماله هذه الأمانة بين يدي الله–تعالى–في يوم الدين : يناله ثوابُ الطاعة، ويصيبُه عقابُ المعصية، وهذا ما دلت عليه آيةُ الأمانة، وفصلته آيات الوعدِ والوعيدِ : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب : ٧٢).

المراد بالأمانة أمانة «حرية الاختيار » القائمة على تأسيس العلاقة بين الله والإنسان، وقد منح الله الإنسان العقلَ ليكون أداة ووسيلة لا غنى عنها لممارسة «حريَّة الاختيار» والحيلولة دون إساءة استعمالها.

المبدأ الثالث : أنَّ قبول « أمانة الاختيار» هي مناطُ المسئوليَّة الإنسانيَّة : فالمكره أو المجبر لا يحتمل مسئوليَّة ما أكرِه عليه، أو ألجئ إلى فعله. ولذلك فإنّ مسئوليَّة الإنسان لا تتجاوز مجال حريته ولا حدودها. ومن أروع ما جاء في القرآن الكريم تلك المقارنة المعجزة بين من تُسْلَبَ منه حريَّةُ الاختيارِ وبين عباد الله الذين شاء الله–تعالى–لهم أن يكونوا أحرارا ؛ هذه الآيات الكريمة من سورة النحل : ﴿فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ (النحل : ٧٤–٧٨) لتؤكد أن الإنسان قد زود بقوى الوعي ليكون قادرا مسئولا حرا ذا إرادة ومشيئة له عقل هو ما أطلق الغزالي عليه أنّه رسول من داخل والرسل رسل من خارج.

فإذا انتقصت حريَّة الإنسان انتقصت مسئوليّاته بقدر ما نقص من حريّته.

المبدأ الرابع : وهو يؤكد ما سبق ويزيده وضوحًا : أنَّ القرآن المجيد ربط مسئولية الإنسان وبناها على «حرية الاختيار» لكنّه لم يتركه منفردًا، بل عزز ذلك، وأعطى حريّة الإنسان مداها الكامل في بناء المسئولية الإنسانية على إرسال الرسل : ﴿ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ (النساء : ١٦٥)، وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء : ١٧). و«شخصيَّة العقاب» في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء

الْأَوْفَى(٤١) ﴾ (النجم ٣٧-٤١) وربَطَ سبحانه الجزاء بالإحسان أو الإساءة في قوله جل شأنه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم : ٣١).

وحرّم الله –تعالى–على نفسه الظلم، ونفا عن ذاته العليَّة ذلك نفيا مطلقا : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء : ٤٧)

وربط كل ما أُمر الإنسان به أو نُهى عنه بوسع الإنسان وطاقته لتحقيق العدل الإلهيّ المطلق معه في قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ (الطلاق : ٧)–أي : من الطاقة والقدرة وقال تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة : ٢٨٦) فلا يكلف الله أحدًا إلا ما يقدر عليه ويطيقه ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن : ١١٦).

وَترك–جل شأنه–الإنسانَ فيما يسأل عنه ومشيئته فقال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩)، وقال جل شأنه : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت : ٤٠).

وأَعَمَل إرادة الإنسان، وأعطاها الفاعليّة في مجال الاختيار قال سبحانه : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء : ١٨-١٩).

وفرّق في المسئوليَّة بين جزاء الخطأ وجزاء العمد، كما فرق بين خطأ الإهمال والخطأ المقصود وبين الإصرار على الخطأ والاستمرار فيه، وبين التراجع عنه والتوبة منه.

ورفع–سبحانه–الإثم والمسئوليَّة في حالة الإكراه الذي يسلب الإنسان حريَّة الاختيار. وبقدر ما تنتقص الحرية تنتقص المسئوليَّة ؛ ففي جريمة الزنا فرّق القرآن بين المالك لحريّته ومنقوصها فجعل على الأَمَةِ نصف ما

على الحرة المسئولة من العقاب لانتقاص حريَّتها، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ (النساء : ٢٥).

وتدخل في إطار هذه المبادئ الحريَّات-كلها-حريَّة العقيدة وحريَّة العبادة، وحريَّة التصرف، وحريَّة التملك والانتقال والارتحال والإقامة وسواها.

فهذه أربعة دعائم أرساها القرآن المجيد ليبني عليها المفهوم الدقيق للحريَّة الإنسانيَّة-المنضبطة : فلا تفريط ولا إفراط. وقد بدت «الحريَّة» بعد ملاحظة هذه الدعائم واحدة من أهم القيم القرآنيَّة الحاكمة التي تقوم عليها المنظومة الإسلاميَّة-كلّها :

وهذه الدعائم الأربع من الممكن أن يتسع البحث فيها ويستفيض ليقود إلى بناء «نظريَّة إسلاميّة في الحريَّة» تنقذ الحريَّة من كل ما يتهددها، بل تنقذ البشريّة من كم هائل من الانحرافات.

٤. العدل :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ وَإِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل : ٩٠)، وقال أيضًا : ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى﴾ (المائدة : ٨)، العدل أو العدالة تعتبر من أهم المفاهيم الإسلاميَّة التي جاء القرآن المجيد بها، والعدل-في الوقت نفسه-أعلى القيم الإسلاميَّة العليا وأبرز مقاصد الشريعة. فإذا كانت القيم القرآنيَّة الحاكمة العليا ثلاثة : هي "التوحيد والتزكية والعمران" فإنَّ "العدل" يأتي في مقدمة المقاصد الشرعيَّة المتفرعة عنها، فلا يتحقق توحيد الموحِّد إذا لم يتّصف بالعدل ولا يتحلّى بالتزكية إلا إذا اتصف بالعدل ولا يمكن أن يقام العمران في الأرض بدون العدل. ولذلك فقد اعتبر علماء الأمة ومفكروها العدل أساسًا للملك، ومقصدًا شرعيًّا يحتل المرتبة الأولى حيث لا ينافسه ولا

يدانيه فيها إلا الحريَّة. وفي نظري أنَّ بين العدل والحرية تلازمًا لا يسمح بانفصال أيّ منهما عن الآخر فلا يتحقق العدل بدون حريَّة ولا تكون الحريَّة حريَّة حقيقيَّة بدون أن يحميها العدل ويصونها.

ولقد أشاد القرآن بالعدل وأمر به في آيات عديدة فقال ﷻ : ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (النحل : ٩٠)، والعدل كما يقتضي الحريَّة ويتفاعل معها فإنَّه يقتضي المساواة في المكافئة والجزاء إنْ خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وحرص القرآن وحث على جعل العدل قيمة مطلقة لا تتأثَّر بالعواطف ولا بالمشاعر فقال : ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة : ٨)، وقد كان رسول الله ﷺ مثالًا للعدل المطلق وتجسيدًا له في كل شأن إلى أن تحول إلى سلوك ثابت له عرف به وتمثله أصحابه فصاروا نماذج لتجسيد العدل بكل معانيه وفي سائر مجالاته. ولقد أثر ذلك في كل من عرف رسول الله ﷺ وعرف أصحابه وآل بيته وصار ذلك العدل من أهم أسباب الدعوة ولفت أنظار الناس إلى عظمة الإسلام وسموّه وتحضُّر المسلمين وتقدُّمهم. وبذلك استحقت الأمة المسلمة التي ساد العدل فيها أن توصف بـ"الخيريَّة والوسطيَّة" وتستحق منصب "الشهادة على الناس" ؛ لإنَّ العدل قد توافر فيهم وجعلهم أهلًا لذلك كلّه. فصارت تلك الصفات أي "الخيريَّة والوسطيَّة والشهادة" صفات لهم ولباسًا لهم وصاروا مضرب المثل في العدل. على ذلك قام نظامهم السياسيّ في الخلافة الراشدة، وعلى ذلك قام نظامهم القضائيّ حتى أصبح العدل روحًا يسري في المجتمع يسدد خطاه ويقوّم مسيرته ويطهّر بيئته، ويعطيه كل وسائل التضامن والتآخي والتكافل والقوة والمنعة. بالعدل حفظ الله للناس ضروريّاتهم وأعلاها الضروريّات الخمس : النفس والمال والعقل والعرض والدين كما حفظ لهم حاجيَّاتهم وما لا قِيام للحياة بدونه إلا بمشقة وتعسُّف بل حفظ بذلك كماليّاتهم فصار العدل جزءً من شخصيَّة الإنسان المسلم يعيش في عقله ويسيّره في حياته ويتمثّل في بناء فنونه وآدابه ومؤسساته، ويحكم سائر علاقاته ومعاملاته.

واليوم وقد ضعفت علاقة المسلمين بالإسلام ولم يعد الإسلام هو المهيمن على حركتهم في الحياة، والموجّه لجهودهم تراجعت عندهم القيم وضعف تأثيرها وقل المتمسكون بها فتفوقت عليهم أمم أخرى قد لا تكون أممًا

مؤمنة موحدة ولكنّها عرفت طريقها إلى العدل بعقولها وخبرتها فتشبثت به وتمسكت به، وأوجدت الضمانات الكفيلة بصيانته وإعلاء شأنه وتدعيمه. فسعدت وسادت وأسعدت شعوبها، واستطاعت أن تبني حضارة ومدنيَّة وتقدمًا وانتصرت على دول تنتمي إلى الإسلام وتنتسب إليه، ولكنها لا تقيم العدل بينها فصار أبناؤها يلجأون إلى تلك الأمم وتلك الدول ليعيشوا بين ظهرانيها ويتمتعوا بعدل أهلها ونظمها ؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يحيا بوصفه إنسانًا ذا كرامة بدون العدل فكأنَّ الإيمان والإسلام يفقدان مقومات الحياة والبقاء والدوام والاستمرار إذا فقد العدل. إنّه لن تستطيع أُمّتنا أن تستعيد كرامتها، وتعيد بناء وحدتها، وتصوغ مشروعها الحضاريّ، وتتبوأ المكانة اللائقة بها إذا لم تعد العدل إلى موقعه السامي في ديارها ليكون قيمة عليا يتحلّى بها الحاكمون والمحكومون ويحوطونها بسائر الضمانات الكفيلة بترسيخها وتدعيمها.

فالعدل أساس الملك وقوام الحضارة ودعامة العمران وقاعدة كرامة الإنسان والله أعلم.

٥. المساواة :

لفظ سواء في القرآن الكريم :

قال ابن الجوزيّ : ذكر أهل التّفسير أنّ «السّواء» في القرآن الكريم على خمسة أوجه :

١-المعادلة والمماثلة، ومنه قوله تعالى : ﴿سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ ﴾ (الحج : ٢٥).

٢-العدل، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران : ٦٤).

٣-الوسط، ومنه قوله عزّ من قائل : ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ﴾ (الدخان : ٤٧).

٤-الأمر البيّن ومنه قوله عزّ وجلّ : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ﴾ (الأنبياء : ١٠٩).

٥-القصد، ومنه قوله تعالى : ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة : ٧)[١٩].

المساواة اصطلاحًا :

تعني المساواة-في المجال الأخلاقيّ-أن يكون للمرء مثل ما لأخيه من الحقوق وعليه مثل ما عليه من الواجبات دون زيادة أو نقصان. قال ابن مسكويه «وأقلّ ما تكون المساواة بين اثنين، ولكنّها تكون في معاملة مشتركة بينهما في شيء ما أو أكثر»[٢٠].

والمساواة قيمة لا تنقسم ولا يوجد لها أنواع، وهي أشرف نسب العلاقات بين الأشياء، لإنّها هي المثل بالحقيقة [٢١] أي أنّها تجعل كلا طرفيها للآخر سواء بسواء.

الفرق بين العدالة والمساواة :

المساواة هي الغاية الّتي تسعى العدالة إلى تحقيقها، وهي الغاية المرجوّة منها، والعادل-في مجال الحكم-هو الحاكم بالسّويَّة لإنّه يخلف صاحب الشّريعة في حفظ المساواة[٢٢]، ومن هنا فقد جاء في تعريف العدل أنّه القسط اللّازم للاستواء [٢٣](أي لتحقيق المساواة بين الطّرفين دون زيادة أو نقصان)، وإذا كانت العدالة خلقا فإنّ المساواة قيمة وهدف.

ولما كانت العدالة خلقا أو هيئة نفسانيّة تصدر عنها المساواة فقد اقترن الأمران وارتبطا ارتباطًا وثيقًا.

---

[١٩] نزهة الأعين النواظر. -ص. ٣٦١.

[٢٠] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه. -ص. ١٠٥

[٢١] المرجع السابق. -ص .٩٣.

[٢٢] المرجع السابق. -ص. ٩٨

[٢٣] تهذيب الأخلاق للجاحظ. -ص. ٢٨.

لإنّ العادل من شأنه أن يساوي بين الأشياء الّتي هي غير متساوية، لما كان الأمر كذلك فإنّ كليهما قد يستعمل استعمال الآخر تسامحا، ولكنّهما غالبا ما يستعملان معا.

من صور المساواة في الإسلام :

للمساواة في الإسلام صور عديدة فصّلها الشّرع الحكيم، منها :

- المساواة بين الرّجل والمرأة في أداء الواجبات الشّرعيّة والإثابة عليها، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ (النساء : ١٢٤).
- المساواة بين الزّوجات في حقوق الزّوجيّة (في حالة التّعدّد)، قال تعالى : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (النساء : ١٢٩).
- المساواة بين الأجناس والأعراق في التّمتّع بالحقوق المشروعة لكلّ منهم.
- المساواة بين الأبناء في الهبة والوصيّة ونحوهما.
- المساواة بين الخصوم في مجالس القضاء وفي سماع الحجّة منهم والقصاص من المعتدي أيّا كانت منزلته. روي عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ زَيْنَبَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ-رضى الله عنها-أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ-صلى الله عليه وسلم-قَالَ « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَىَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلاَ يَأْخُذْهَا »[٢٤].
- المساواة في حقّ الكرامة الإنسانيّة، فلا يؤذى أحد بسبب لونه أو جنسه أو مذهبه أو عقيدته، قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

[٢٤] أخرجه البخاري في صحيحه (: ٩\٤٩١).

أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات : ١٣)، ومنه قوله-صلى الله عليه وآله وسلم- : «الناس سواء كأسنان المشط».

- المساواة في حقّ إبداء الرّأي من المسلم وغير المسلم، قال تعالى : ﴿ قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ (آل عمران/ ٦٤).
- المساواة في حرمة الدّماء والأموال والأعراض.
- المساواة في إيقاع الجزاء لكلّ من ينتهك حدّا من حدود اللّه، فلا يعفى أحد من العقوبة لشرفه أو قرابته من الحاكم فتلك الّتي أهلكت الأمم السّابقة، أمّا في الإسلام فلا أدلّ على المساواة الكاملة في هذه النّاحية من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[٢٥].
- المساواة في نيل الجزاء في الدّنيا والثّواب في الآخرة لكلّ من يعمل عملاً صالحًا أو غير صالح، قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية : ١٥).

تلك نماذج من القيم التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا لمنظومة «المقاصد القرآنيَّة العليا الحاكمة» : التوحيد والتزكيَّة والعمران. وهي في جملتها قيم مشتركة لا يتوقّع أن يرفضها أو يتنكّر لها أي فصيل أو قبيل من البشر.

القيم في الفكر الغربي

منذ فجر التاريخ ولا نغالي إذا قلنا إنَّه مع بداية الاستخلاف الإلهيّ لآدم وإهباطه إلى الأرض، وسؤال «الفعل الإنسانيّ» ومَن الذي يمنحه القِيمة ؟ وكيف هو قائمٌ في الذهن مطروحٌ في الواقع، بل لو تأملنا فترة ما حتى قبل الهبوط إلى الأرض حينما نحاول فهم ما وسوس إبليس به لآدم ليغريه بالأكل من الشجرة نجد أنَّ ذلك قد حدث بناءً على سؤال إبليس لآدم أن يأكل من الشجرة فيقوم إبليس بعمليَّة تلاعب بالقيم بحيث يوظّف في وسوسته ذلك ويغيّر في القيمة قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (الأعراف : ٢٠) فالملائكيَّة والخلود كانتا في ذهن آدم وزوجه على ما يبدو

[٢٥] أخرجه البخاري في صحيحه (: ١٤\٢١٤).

قائمتين باعتبار كلٍ منهما قيمة من القيم الأساسيَّة ولذلك فإنَّ إبليس قد استغل هذا ليحاول أن يعطي لذلك التصرف قيمةً أخرى، وبعد الهبوط إلى الأرض وبداية رحلة الابتلاء الإنسانيّ نجد السؤال عن الفعل الإنسانيّ وقيمته ومصدر تقويمه سؤالاً ملحًّا وفي الآية الكريمة : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة : ٢٧) فهذه الخصومة المبكّرة بين نموذجين بشريَّن على قبول فعلٍ إنسانيّ وعدم قبول فعل آخر جعلت صاحب الفعل المرفوض يعمد إلى قتل أخيه توهمًا منه أنَّ له أثرًا في الهبوط بقيمة فعله إلى مستوى الرفض الإلهيّ.

ثم مرت البشريَّة بأطوار مختلفة جاءتها رسل وبُعث فيها أنبياء، وبرزت فيها أفكار لم تخل أُمَّة من الأُمم منها، ولا قريةٌ من قرى المعمورة من جدلٍ فيها فنجد أُمَّة مّا أو فريقًا مّا يدفع ويرفض ما يأتي به المرسلون وهمًا منه بأنَّه بذلك يحقّق ذاته ويمنح إنسانيَّته مداها في الصلاحيّات والمسئوليّات ؛ ولذلك فحين يقول مثل هؤلاء : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف : ٢٢) هو في نظرهم تكريسٌ لعزّة موهومة، وتأكيد لسيطرة الإنسان على فعله، وتقييم فعله، ووزنه بمقاييس وموازين يضعها هو. وهكذا نجد دائما البشريَّة تكاد تنقسم إلى فريقين، عند النظر في حقيقة كلٍ منهما نجد فريقًا يعمل على تأكيد ذاته وسيطرته على مصيره، ومسؤوليّته عن فعله، وصلاحيّته لتقييم ذلك الفعل دون حاجةٍ إلى تدخل خارجيّ، في حين نجد فريقًا آخر يغلب أن يكون أقلّ عددًا يتقبّل مبدأ «حق الله تبارك وتعالى» بتقييم الفعل الإنسانيّ وربط تلك القيمة بمصادر يحدّدها وموازين ومقاييس يضعها.

لقد عرف الإنسان «الفلسفة» ووقف إلى جانبها باعتبارها هي التي تعبّر عنه وعن مسؤوليّته عن فعله وتقييم فعله مقابل الاتجاهات اللَّاهوتيَّة التي ربما لاحظ فيها الإنسان شيئًا من التسلُّط والاستلاب له والاستبداد بتقييم فعله دون وجه حق من وجهة نظر الفلسفة، ولقد عرف الفكر القديم مفهوميّ «الحسن والقبح»، واعتبروا كلاً منهما معيارًا في تقييم الفعل الإنسانيّ، فيمكن أن يُحكَم على أساليب السلوك والعادات والأعراف سواءٌ نبعت من أفراد أو فرضتها الجماعة بأنَّها حسنة أو قبيحة، ولكنّ مصدر التحسين والتقبيح كان

دائمًا موضوع جدال بين اللَّاهوت والفلسفة فاللَّاهوت دائمًا يؤكّد عجز الإنسان عن اكتشاف «قِيمة فعله وعدم قدرته على ذلك»، وفي الوقت نفسه يؤكد الإنسان قدرة عقله التامة على اكتشاف ما في الأفعال من أوجه أو خصائص وما لها من آثار تساعده في تقرير وبيان ما هو حسن وما هو قبيح، وبالتالي فهو ليس بحاجةٍ إلى اللاهوت ليقرِّر له ذلك، وكانت–فيما مضى–الأيام سجالاً فكثيرًا ما كان اللَّاهوت ينتصر ويتغلّب على الفلسفة ويعطي مؤشراته في مجال تقييم الفعل الإنسانيّ.

ويختلف مصدر القيم باختلاف المدارس الفلسفيَّة، فقد بدت القيمة في نظر مفكري العصر القديم أول ما بدت على أنَّها إعراب عن مَثَل أعلى إنسانيّ محدّد باعتبار علاقة الطبيعة بالعقل، وعلى هذا فإنَّ على المرء أن يحيا بحسب الطبيعة، فالقيمة في نظر أفلاطون تتمحور في فكرة «المثل الأعلى» حتى يتعذّر تمييز «حقيقة القيمة» عن «قيمة الحقيقة».

اختلف الأمر بشيوع المسيحيَّة في العصر الوسيط الغربي وحلّ اعتبار الشخص محل اعتبار الكائن، ومن هنا نشأت الحاجة للاستعاضة عن المَثَل الأعلى الإغريقيّ بمثل أعلى مسيحيّ يتعالى على النفس البشريَّة. وقد أحدثت المسيحيَّة تأثيرًا كبيرًا في منظور الفكر الفلسفيّ الوسيط وعلاقة القيم به.

أما بنو إسرائيل فإنَّ القيم عندهم قد مرت بأطوار عديدة ؛ ففي الطور الأول وعلى عهد يعقوب أو اسرائيل نفسه كان رأس القيم توفير الحاجات الضروريَّة لأبناء يعقوب بالزراعة والصيد والتجارة وما إلى ذلك، قال تعالى : ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ (يوسف : ٦٥). وحينما كثروا وتحولوا إلى شعب بعد هجرتهم إلى مصر، أو أقليَّة مستعبَدة ذكر لنا القرآن الكريم كيف أُسئيت معاملتهم واستعبدهم فرعون فصارت القيمة العليا عندهم التحرّر والأمن على أنفسهم، وأبناءهم، وأموالهم، ومغادرة أرض فرعون إلى الأرض المقدّسة ؛ حيث يستقلُّون فيها ويستمتعون بحريَّتهم واستقلالهم وسيادتهم، ويكونون عبادًا لله بدلاً من أن يكونوا عبيدًا لفرعون، ولكن بعد أن نسوا حظًا مما ذكّروا به عادت إليهم نزعة العبوديَّة فطلبوا من موسى أن يدعو الله–تعالى–بأن يمنحهم الأطعمة التي اعتادوا عليها في مصر بدلًا من المن والسلوى،

فأخبرهم الله-تعالى-بأنَّ شهواتهم هذه قد تقودهم إلى أرض العبوديَّة مرة أخرى، وقد يفقدون كل ما منَّ الله عليهم به، ثم جاءوا إلى طور آخر حين برز فيهم تأثير الانحراف وعبادة العجل الذهبي فأخذوا يقدّسون المال فصار الغنى عندهم قيمة عليا بقطع النظر عن الوسائل التي اتبعوها في جمعه.

ثم هبطوا أكثر وتراجعت قِيَمهم فجعلوا من شهواتهم آلهة وترفّعوا على النبيّين والناصحين، وكل نبيّ جاءهم بما لا يشتهون قتلوه وكذّبوه وأبعدوه عن أي تأثير في حياتهم وقيمهم، قال تعالى في شأنهم : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ {البقرة/٨٧} وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ {البقرة / ٨٨}﴾ (البقرة : ٨٧-٨٨)، ثم هبط مستوى القِيم عندهم وتدنّى إلى حد تفضيل السحر على النبوة فاتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان. وهكذا حتى خسروا كثيرًا من مزاياهم والنعم التي أنعم الله بها عليهم فتفرّقوا بعد أُلفة واجتماع، قال تعالى : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأعراف : ١٦٨)، وصحبتهم كثير من القيم الهابطة إلى منافيهم في مختلف نواحي الأرض من أكل الربا والاستعلاء على الآخرين، وأكل المال الحرام دون التفات إلى مصادره، والتسوية بينه وبين المال الحلال، والاستعلاء على الآخرين بدون حق ... إلى غير ذلك.

ومايزال كثير من تلك الأخلاق والسلوكيَّات والقيم الهابطة تسود حياتهم، وتقود خطواتهم، وتؤثر فيهم ؛ ولذلك أرسل الله-سبحانه وتعالى-إليهم عيسى-عليه السلام-ليعيد تصحيح المفاهيم، ويعيد بناء القيم من جديد فأخذ يكافح لتصحيح المفاهيم التي انحرفوا بها وإعادة المعاني التي فرّغوا القيم منها إليها من جديد، ولذلك رفضوه لاستكبارهم واستعلائهم واعتدادهم بما وصلوا إليه ورفضهم إحداث أي تغيير فيه أو تعديل عليه.

والحضارة القائمة أُقنعت بالحق وبالباطل أنَّها حضارة يهوديَّة نصرانيَّة فتسللت لها موروثات من ذلك التاريخ وكان أخطرها إلغاء المرجعيَّة الإلهيَّة للقيم، واعتبار الإنسان ذاته مصدر القيم في مستوى الإنتاج لها

والتصرف فيها، وتسييل مضامينها وتفريغها لتصبح القيم قيمًا إنسانيَّة تدخل فيها سائر المؤثّرات الموروثة فأصبح «مطلق القوة» قيمة لتحقيق الغلبة على الآخرين، والانتصار عليهم. «والحريَّة» التي أُعطيت مفهوم الإطلاق الذي لا تقيده قيود ولا حدود على أساس أنَّ الإنسان هو مركز الكون، وهو مرجعيّته لا يملي عليه أحدٌ فيها.

مصادر القيم في الفكر الغربي :

وفي العصر الحديث ظهرت فلسفة القيم وكأنَّها فلسفة حديثة ولما يمضى على نضجها وقت كاف يتيح استيضاح المدارس والتيَّارات الفلسفيَّة السائدة فيها، فثمة تيار فلسفيّ كالنفعيّين والتجريبيّين والذرائعيّين الذين يجعلون مصدر القيمة هو التجربة والخبرة والمنفعة العملية فقط[٢٦].

أما أصحاب النظرية الاجتماعية وفي مقدمتهم دوركهايم (١٨٥٦-١٩١٧) فهم يذهبون إلى أن المجتمع هو مصدر القيم، فالمجتمع-عندهم-أصل القيم كافّة وهو الذي يضفي على القيم عنصر الإلزام فعن المجتمع يصدر أفضل ما في كيان الإنسان وعنه تصدر جميع أشكال تفاعله الراقي كاللغة والعلم بل والأخلاق والدين-أيضًا-في نظر هؤلاء.

وفي المرحلة التي تلت دوركهايم ذهب عالم الاجتماع "بوكليه" إلى التساؤل الحقيقي ومصدرها وذهب إلى أنه في وسع كل إنسان أن يميز أحكام القيم التي يستند إليها، وبهذا تصبح القيم لا تعرب عن خصائص الأشياء في ذاتها عند هؤلاء بل عن رغبات البشر الذين يحيون حياة اجتماعية في ظل مجتمعات متغيّرة.

وهنا بدأ العديد من المفكرين والفلاسفة الغربيّن بالذهاب إلى أنَّ مصدر القيم هو الإنسان فظهر ذلك عند فريدريك نيتشة (١٨٤٤-١٩٠٠) الذي ذهب إلى أن مصدر القيم الأقوياء أو الأعلون في المقام الاجتماعيّ (السادة). ولكن ليس النبلاء وحدهم الواضعون الخالقون للقيم فحسب بل ينضم إليهم البائسون والفقراء وغيرهم. على اعتبار أنه رأى أن لكل من هؤلاء قيما معينة فالأقوياء هم الذين رفعوا من شأن حالة

[٢٦] دستور المعلمين / عثمان عبدالمعز رسلان. -القاهرة : دار البشير للثقافة والعلوم، ٢٠٠٠. -ص. ١١

العبوديّة ورأوا أنّه من الخير أن يكون الإنسان عبدا في حين أنّ العبد أو العبيد رأوا وجود قيم مضادة للقيم التي خلقها السادة.

ويمكن حصر أهم النظريات وفقًا لمختلف الاتجاهات الفلسفيّة في هذا الشأن فيما يلي[٢٧] :

أولا : الفلسفة المثاليَّة :

تُرجع الفلسفة المثاليَّة مصدر القيم إما إلى إله وإما إلى قوة روحيّة للطبيعة. وتذهب إلى تقسيمها إلى ثلاثة قيم ؛ «هي : الحق، والخير، والجمال»، وهناك من يضيف إليها الدين قيمة رابعة لحماية القيم الثلاث أكثر من كونها قيمة رابعة.

ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق العقل المتسامي المجرد من عوالق الشهوات كما يرى ذلك أفلاطون. من هنا فإن مصدر القيم لديهم خارج عن الإنسان ذاته وهي موجودة قبله وعلى نحو مستقل، وهي جزء من العالم أو الوجود العقلي. في حين أن عدم إرادة الفعل القيمي لا تكفي لعدم سلوك الفعل، بل ينبغي مع ذلك أن يوفر المرء لنفسه القوة مثل السلطة أو الصداقة مع الأخيار.

ثانيا : الفلسفة الواقعيَّة :

ترى الواقعيَّة أنّ مصدر القيم التجربة التي يتوصل إليها عن طريق الحواس كونها صادرة عن الواقع الحسي، وهي تتّسم بالتغيّر والنسبيّة.

[٢٧]للاستزاده في مصادر القيم الغربية انظر : جورج بوليتزر، مبادئ أولية في الفلسفة، ترجمة د. فهيمة شرف الدين (دار الفارابي : بيروت/ لبنان ٢٠٠١)- عثمان عبد المعز رسلان، دستور المعلمين، (دار البشير للثقافة والعلوم مصر ٢٠٠٠م)- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق (المركز الثقافي العربي : الدار البيضاء، المغرب ٢٠٠٠)- عادل العوا، العمدة في فلسفة القيم (دار طلاس : دمشق ١٩٨٦).

ويشير أرسطو إلى وجود قانون قيمي وخلقي كلي يمكن إدراكه بالعقل، وهو ملزم لجميع الناس على اعتبار أنَّهم كائنات عاقلة، إذ يتم الحصول على هذا القانون من الطبيعة التي تزود الإنسان بالمبادئ التي تحكم تقديره للخير والجمال مستنداً إليها في إصدار أحكامه.

ويمكن للإنسان أن يختار القوانين الطبيعية التي تعبر عن الخير، فالطبيعة هي التي تزود الإنسان بالمبادئ التي تحكم تقديره للخير والجمال، وتدفعه نحو الاهتمام بتحقيق القيم النبيلة ليحيى حياة منتجة سعيدة.

ثالثا : الفلسفة البراجماتيَّة :

تعد قيم الحق والخير والجمال في الفلسفة البراجماتيَّة قيمًا نسبيَّة غير مطلقة، وتتغيّر بتغيُّر الزمان والمكان، إذ يسعى الإنسان إلى إيجاد قيمه الخاصة به عبر التجربة، وترد البراجماتيَّة قيمها إلى المجتمع وإلى التجربة، فالأشياء والأعمال تستمد قيمتها من النتائج التي تترتب عليها في خبرة الأفراد والجماعات، وكل ما يؤدي إلى نتائج غير مرغوب فيها يعد شر، ليقع بذلك المصدر النهائي للقيم في نطاق الخبرة الحسيّة للرغبات والارتياح الناشئين عن تحقيقهما.

الفلسفة الوجوديَّة :

تُعد القيم الوجوديَّة غير مطلقة، وغير محدّدة بمعايير خارجيَّة، وأن القيم التي تمثل أهمية لكل إنسان نسبيَّة تتوقف على الظروف الفرديَّة، وتتحدد بالاختيار الحر للفرد، فهي مسألة شخصيَّة فرديَّة، في حين أنَّ ما لا يتم اختياره منها بحريَّة يكون عديم الفائدة.

وترى الوجوديَّة أنَّ الإنسان يتعرف على قيمه عن طريق ممارسته لحريَّته، فالحريَّة أساس القيم، لذا فإنَّ الفرد هو المسؤول عن أفعاله وتصرفاته مسؤوليّة كاملة يختار ما يريد من تصرّفات.

الفلسفة الوضعيَّة المنطقيَّة :

تشير الوضعيَّة المنطقيَّة إلى أنَّ القيم وسائل تعتمد على دوافع اجتماعية ؛ فهي تلعب دوراً في توجيه الإرادة تجاه إنجاز الخير الخاص بمصلحة الفرد والجماعة، لترفض بذلك النزعات الفردية المتمثلة في دوافع الفرد الأنانية، وبالمقابل تقرر أن الأخلاق التي تنادي بها قائمة على أساس الذات والموضوعية، وهي تحمل المجتمع مسؤولية الإشراف على دوافع السلوك الإنساني.

وتدعو هذه الفلسفة إلى حرية الأخلاق المسؤولة لا السائبة، لأنَّ السائب منها سرعان ما يسبب فوضى فتتفكك الأخلاق. وتؤكّد الوضعيَّة المنطقيَّة مسؤوليَّة الفرد الاجتماعيَّة الخاضعة لمبدأ ضمير الفرد والنسبيَّة الاجتماعيَّة.

وحين بدأت الأعراض الجانبيَّة لعملية تسييل القيم، وإلغاء مرجعيّتها، ووقفوا عاجزين عن تجريدها من تلك الأعراض الجانبيَّة فأدت الحريَّة المطلقة إلى عمليّة الاغتراب، اغتراب الإنسان عن كل ما حوله، ثم اغترابه عن نفسه، وأدّت الرغبة بالحصول على القوة إلى تقديم فائض القيمة على الإنسان، ثم تقديم المال عليه، فإن بلوغه مستوى القوة والقدرة يتوقف على الأموال الضخمة التي مكنّتهم من ناصية القوة بكل أنواعها ومعانيها، وحين برزت الآثار السلبية لذلك الاتجاه جاءت الاشتراكيّة بحجة بناء قيم جديدة، وإدخال منظومة جديدة تعلي قيمة الإنسان، والجهد الإنساني على فائض القيمة لعلها بذلك تطيل في عمر النظام الذي قام على تلك القيم وانبثق عنها، لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وانهارت الاشتراكيَّة والقيم التي جاءت بها لتتغوّل الرأسماليَّة من جديد، فصارت اليوم ترى في قيمها في الحريَّة والديمقراطيَّة وتعميمها وسيلة لإعادة تشكيل العالم، وتنقيته من سائر القيم المضادة للحضارة الغربيَّة التي يُدّعى أنها ذات أصل يهوديّ نصرانيّ، وهاهي قاعدة النظام العالميّ أمريكا تحاول فرض الديمقراطيَّة والرأسماليَّة على العالم كله، وكلما صادفت نجاحًا ازداد يقينها وإيمانها بتلك القيم مع أنّ هذه المنظومة ثبت فشلها قبل عقود كثيرة بل إنّ الاشتراكيَّة لم تكن إلا محاولة للإنقاذ. أما

وقد سقط الدواء وفشلت محاولة الإنقاذ فإنَّ من المنطقيّ والطبيعيّ أن ينتهي ذلك المريض الذي لم يعد ينفع معه شيء إلى الاستبدال.

والأزمة الاقتصاديّة العالميّة الأخيرة التي لم تزل جاثمة على صدرها تؤكد ذلك، كما أنَّ ازدياد المخاطر على الكون من مشكلات البيئة الكثيرة التي صارت تهدد الحياة إلى أزمة الجوع التي يعيش تحت وطأتها ما يقرب من عشرين بالمئة من أبناء الأرض، والتلوث في الماء والبيئة وما إليها، وزيادة نسبة التصحّر، وبروز الأمراض الفتّاكة، ومقاومة أُمم البكتيريا لكل ما تمخضت عنه جُعبة العلم عنه من مضادّات حيويَّة، وكثرة الجريمة، وانتشار الانتحار، وتفكّك الأسرة. كل ذلك يدل على أنَّ العالم في حاجة إلى منظومة قيم جديدة يقدّمها هذه المرة القرآن العظيم ؛ لإنَّ الانهيار الذي أصيبت به القيم كان على مستوى كونيّ ولابد من مصدر كوني ليعيد بناء تلك المنظومة، ويستبدل التآلف منها بمنظومة قيم كونيَّة سليمة لكن لابد أنّ يجد القرآن حملة يستطيعون السمو به إلى تلك الآفاق الكونيّة، ويتجاوزون حواجز التخلّف في بيئاتهم وأقطارهم ومجتمعاتهم ؛ ليكونوا مؤهّلين لحمل تلك الأمانة، أمانة تقديم منظومة قيم كونية جديدة بعد اهتراء وتفكّك سائر منظومات القيم التي طرحها الشرق والغرب فإلى القرآن من جديد.

لقد كان للقرآن موقف آخر حين نزل ووجد تلك الفلسفات والانقسامات قائمةً بين البشر حيث جاء بمنظور آخر مغاير تمامًا لاتجاهات اللاهوت والفلسفة انطلق من رؤيته الكليَّة التي حددت كيفيّة حدوث الفعل الإنسانيّ، فالفعل الإنسانيّ في حقيقته ومبناه حاصل جدلٍ وتفاعل بين غيبٍ وإنسانٍ وطبيعة، ومادام الأمر كذلك فإنَّ عملية تقييمه لابد أن تلاحظ فيها تلك الأبعاد الثلاثة، فلا يستقّل بُعد واحد عن البُعدين الآخرين في تحديد قيمة هذا الفعل. ومع أنَّ القرآن المجيد قد أعاد النظر في حقيقة الإنسان وفي مفهوم فعله وحدد مصادر تقييم ذلك الفعل لكنّ الاتجاهات الموروثة والمتداولة في التاريخ البشريّ قد استمرت مع تراث البشرية يجري تناقلها من جيل لآخر واحتفظت أوربا والمسيحيَّة واللاهوت الكنسيّ واليهوديّ بكل ذلك الموروث والتصارع حوله ولم تسلم الساحة الإسلاميَّة من تسرب بعض تلك الاتجاهات إلى مجالاتها فرأينا الجدل

الذي دار في أصول الفقه وأصول الدين بين الطوائف والفرق حول أخطر أمرين حسمهما القرآن وهما : أمر الحاكميَّة، أهي حاكميَّة العقل أم حاكميَّة الشرع، ومبدأ التسيير والتخيير وما إلى ذلك. علمًا بأنَّ القرآن الكريم قد أوضح هذه الأمور إيضاحًا تامًّا حين حدد المسؤولية الإنسانيَّة الكاملة عن الفعل وربط بها الجزاء في الآخرة والفلاح في الدنيا بصلاح العمل وحسن الجزاء. وعالج قضية الإكراه ونفاها من أي مصدرٍ برزت وخرجت ومع ذلك فقد وُجد في فرق المسلمين وطوائفهم مَن يقول بالجبر والتسيير أو بالقدر ومن يقول بقدرة العقل الإنسانيّ على التقييم واعتبار النبوة والتشريع مكملات لا مؤسسات في هذا المجال.

فكيف يمكن تفعيل هذه القيم الثلاثة، وهذه المقاصد العليا ؟

إنَّ هذه المقاصد والقيم العليا الحاكمة «التوحيد والتزكيّة والعمران» يمكن أن تعمل مجتمعة باعتبارها منظومة ثلاثيّة متضافرة متعاونة، ذلك لإنَّ التوحيد مقصد مرتبط بالله-تبارك وتعالى-وناظم لكل ما يتعلق بالغيب، والتزكية مقصدٌ في تكوين الإنسان وتنشئته وتربيته وبناء شخصيّته، وجعلها بحيث تكون مؤهّلة للتكليف وحمل أمانة الاختيار، ومسؤوليّة الابتلاء، ومهمّة الاستخلاف، والوفاء بالعهد الإلهيّ والاستفادة بالمسخّرات لإقامة العمران، وأما العمران فهو النتيجة الناجمة عن التسخير الإلهيّ بكل ما له من سلطان على الغيب والشهادة، والجهد الإنسانيّ بكل ما أنعم الله به على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنه تمكّنه من استثمار المسخّرات والاستفادة بها وتوظيفها لتحقيق غاية الحق من الخلق.

والفعل الإنسانيّ أيًّا كان حينما نقوم بعملية تفكيكه وتحليله، ورؤية عناصره وكيف حدث، ولمَ حدث، وما هي آليّات حدوثه، وما الأدوات التي أسهمت أو شاركت في ذلك سوف نجد أنه-على الحقيقة-قد حدث نتيجة تفاعل جرى بين الموجّهات الثلاثة : الله خالقٌ ومستخلِفٌ للإنسان، ومسخّرٌ للكون والطبيعة، والإنسان مخلوقٌ مستخلَف، والطبيعة مخلوقٌ مسخَّر، والتكليف الإلهيّ للإنسان ما حدث إلا نتيجةً لذلك التفاعل القائم على توازن دقيق غاية الدقة بين فعل الاستخلاف والتسخير، وتحديد الغاية، فكأنّنا أمام مشروع إلهيّ كامل-وله سبحانه المثل الأعلى-يواجه مشروع إبليس، ولكي يدحر ذلك المشروع الشيطانيّ المنحرف

لابد أن تتفاعل فيه الأبعاد الثلاث، فالمشروع الشيطانيّ يحاول أن يتجاهل الغيب، ويُنسي الإنسان البُعد الإلهيّ ويصيبه بنوعٍ من العمى أو العشو أو الضلال عنه، ليجعل فعل الإنسان قائمًا على تفاعل ثنائيّ فقط بين الإنسان والطبيعة، وحين يُغفل الجانب الإلهيّ والغيبيّ يصبح ذلك التفاعل تفاعلاً مبتورًا قائمًا على تسخير الرغبات والشهوات ووضعها في غير ما خلقت له، وإخراجها عن الصراط المستقيم، فيحدث لها ما يحدث لقطار أخرج عن سكته أو مساره، ولذلك كان تهديد إبليس " لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ" أي لأضلّنهم عنه وأبعدهم عن سلوكه وأحول بينهم وبين رؤيته عن طريق ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ﴾ (النساء : ١١٩)، فمنظومتنا هذه لابد فيها من تشغيل الثلاثة–معًا– لإيجاد ذلك التناغم والتفاعل الذي يجعل الفعل الإنسانيّ منطلقًا من التوحيد باتجاه العمران والتسخير، لتحقيق مهمة وواجب الاستخلاف بالصورة التي أمر الله تعالى بها. وفي هذه الحالة نحتاج إلى وضع مجموعة من الأصول والقواعد لتشغيل المنظومة كلّها معًا وبتناغم وانسجام وتفاعل لإيجاد الفعل من ناحية، وتقويمه من ناحية أخرى، ووزنه من ناحية ثالثة، ومن ذلك محاولة وزنه بإدراك غايته، وتحقيق ما من أجله وُجد ذلك الفعل، وهنا لابد لنا من أصولٍ كليَّة تشغل المجموعة الثلاثيّة كلّها، وأكثر ما يبرز تفاعل المنظومة بمجموعها في إطار انتاج كليات مثل قوله تعالى : ﴿ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ {٣٢} وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ {٣٣} وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم : ٣٢–٣٤)، هنا نجد كليّة تفاعلت فيها الثلاث فالله تبارك وتعالى خلق، والإنسان هو مَن خُلِق له، وما في الأرض هو ما سُخّر. وحين نأتي لمعرفة حكم الاستفادة والانتماء أو معرفة المالك لهذا الذي في الأرض جميعا نجد آيات أخرى لابد من استحضارها تقول : ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : ٧)، وفي مجادلة ابراهيم لمن حاجّه في ربه يوجّه ابراهيم سؤالا في منتهى الذكاء إليه: "فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ" وفي هذا تحديد للعلاقة دقيق بين المسخّرات والكون المسخّر وبين الإنسان وبين الله تبارك وتعالى، فندرك أن للإنسان حق الانتفاع، وأنَّ ما في الأرض جميعا إنما خُلِق للإنسان لينتفع به لكنّه

لا يملكه ملكيّة تامة، ولا يملك حق التصرف فيه على خلاف طبيعته وضد السُنن والقوانين الحاكمة له، لكن له حق الانتفاع، مطلقًا إلا ما استثني فنأخذ إذًا من هذا إباحة حق الانتفاع بسائر المسخّرات للجنس البشري دون تخصيص وتحديد في هذه المرحلة، ونأخذ منها أنّ الاستثناء من هذه الإباحة إنما هو خلاف للأصل الذي هو الإباحة، وأن هذه الإباحة لا تعني الملكيّة المطلقة بحيث يكون للإنسان حق التصرف في تلك المسخَّرات بحكمة أو بسفه لإنَّها مقيّدة بالتصرف الحكيم، وأنّ هذا الأصل الذي هو الإباحة هو الأصل وأيّ استثناء هو أمرٌ فرعيّ يقدّر بقدره، ويؤخذ على أنّه خلاف الأصل ويبحث المجتهد وهو يعمل هذه المنظومة في كيف ومتى يعيد الأمر إلى الأصل، إذا حقّق الاستثناء أغراضه ثم تأتي أحكام أخرى تتصل بهذا والقرآن يفسّر بعضه بعضا ويتمّم بعضه بعضا في نحو قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧)، ثم يحدّد في آيات أخرى معاني الطيّبات ومعاني الخبائث إلى أن تصبح الصورة تامَّة كاملة نحدّد بمقتضاها ما يمكن أن يُفعل وما لا يمكن، وما يجوز للإنسان أن يفعله وما لا يجوز، وما يحقق غاية الحق من الخلق وما يصادم هذه الغاية وتظهر الأحكام الكليّة بمقتضى هذه الكليَّة والنظر في ذلك التفاعل.

وحين نشغل هذه المنظومة بمجموعها نتخلص من أيّة أفكار جبريَّة أو قدريَّة إذ لا مجال أبدًا لطرح ذلك السؤال الغبيّ : هل الإنسان مسيّر أم مخيّر ؟ ذلك لإنّه في إطار عمل المقاصد الثلاثة يزول المسوّغ من أي نوعٍ كان عن طرح مثل هذا السؤال، فالإنسان هنا مستخلف حرٌ يتصرف فيما استُخلف فيه بعينين ويدين : عين على التوحيد وثانية على العمران، ويدٍ تمتد إلى الخالق المسخِّر بالتوحيد والشهادة والعهد، ويدٍ تمتد إلى المسخّرات وإلى الطبيعة برفق وعاطفة شاكرة لمن سخّر مقدرّة لما سُخّر عالمة بالهدف والغاية، بريئة من العبث، لا مجال لإن يقال هناك تسيير وتخيير، وأنَّ هذا الفعل الإنسانيّ قد أُكره الإنسان عليه بأيّ حال من الأحوال.

فهذه المنظومة حين نشغّلها بكمالها، وبعد أن نضع لما ذكرنا–وسنذكر تفصيلاً أصوله وقواعده–تبدأ عملية إنتاج الأحكام القيميّة للفعل الإنسانيّ وبيان المطلوب منه وغير المطلوب بشكلٍ غاية في النضج

والوضوح والحكمة والمعرفة الشاملة، ونستطيع أن نضع سائر الكليّات الأساسيّة التي تقوم الحياة عليها بهذا الشكل وفي هذا الإطار لنستخلص لها التقييمات المناسبة بيسرٍ وسهولة يشترك فيها الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ والإرادة والفاعليّة، والطبيعة المسخّرة، وتقييمات الوحي، والسنن والقوانين التي وضعها الله تبارك وتعالى لتسيير هذا الكون الفسيح.

أما حين نريد تشغيلها باعتبارها قيمًا ومقاصد تتصل وتنفصل فلابد لها كذلك من بعض الأصول والقواعد التي تساعدنا في تقييم الأفعال الإنسانيّة وفقًا لموقعها من كلٍ من هذا المقاصد الثلاث، ولكي نصل إلى وضع تلك الأصول بشكلٍ ملائم مناسب، لابد أن نضع مجموعة من الأسئلة الدقيقة التي نوجّهها إلى المقصد لكي نتبيّن موقفه من ذلك الفعل الذي نريد من المقصد أن يبيّن لنا قيمته من زاوية ذلك المقصد، وعلينا أن نبني مجموعة من الأصول والقواعد العقليّة والفكريّة لإيجاد الحوار بين المقصد والفعل الإنسانيّ، بعد أن نتأكد من دقة وصحة الأسئلة وعدم ابتنائها أو انطلاقها من قواعد قد لا تساعد المقصد على أن يفضي بما عنده، وفي الوقت نفسه لابد لنا أن نستخرج من القرآن المجيد الذي استنبطنا منه هذه المقاصد والقيم ميزانًا لوزن النتائج أو الإجابات التي يقدمها المقصد عند التحاور معه. وهذا الميزان هو المقياس أو «النسق القياسي» الذي تقاس به وإليه نتائج تشغيل المنظومة.

قضية التسلُّح نموذجًا :

لا شك أنَّ القرآن المجيد قد أمر بإعداد العدة لمواجهة أعداء الأُمَّة المسلمة، وأنّه قد تدرّج في أساليب المواجهة من الرفض والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وتوجيه الدعوة، والمهادنة والموادعة والمعاهدة في بعض الأحيان إلى الإنذار وتوجيه بعض أنواع الضغط على ألا تُستبعَد فكرة القتال واستعمال القوة بشكل كامل فهي واردة أيضًا مثل ورود سواها، فالإعداد له علّته، والقتال له علّته والبراءة والموادعة والمعاهدة والمهادنة، كل عمل أو تحرُّك في هذا الصدد له موقعه وله حكمه، ولكن نوعية الأسلحة وما يترتب على القتال لم تكن بالشكل الذي هي عليه اليوم فاليوم هناك الأسلحة الكيماويّة، والأسلحة الذريّة، والأسلحة الجرثوميّة، وغيرها،

وبما أنّ هذه الأسلحة لم يعد في مقدور الإنسان أن يضبط توجيهها حين استعمالها فإنّها كثيرًا ما تؤدّي إلى قتل البريء والمقاتل والمسالم وغير المسالم، وتدمّر الزرع والضرع وتحطّم العمران، فلو اتجهنا لهذه المقاصد نسألها عن حكم الحروب وما يؤدي إليها، وهل فقدت حروب اليوم الغايات والأهداف التي عرفها الإنسان قديما للحروب أو ماذا ؟! فكيف ستجيبنا هذه المنظومة من المقاصد بوصفها منظومة وما جواب كل منها بمفرده : لا شك أنّنا سنجد إجابات مغايرة لما هو معهود وموجود في القوانين الدوليّة اليوم وفي فقهنا الموروث فكيف يتم ذلك؟.

أولاً : سنقوم بتفكيك السؤال ؛ بحيث نتبيّن كل جزئيّة منه وحدها، ثم نركّبها مرة أخرى لنراها وهي في حالة التركيب، وقد نضطر لإجراء ذلك عدة مرات حتى يتبيّن لنا ما لكل جزئيّة من تلك الجزئيّات بشكلٍ كامل، ويتبيّن لنا وضعها وهي في حالة التركيب.

ثانيًا : لابد أن نتبيّن كل ما له اتصال بها من عناصر الواقع الدوليّ، والواقع المحليّ أين يتداخلان، أين ينفصلان، وما هي المؤثرات المختلفة التي نجدها، كيف ننظر إلى قيمة السلم، وقيمة الحرب، وطبيعة كلٍ منهما، والمصالح والمفاسد المترتبة على كل منهما، أين تلتقي، وأين تتعارض نظم وقواعد حل الاختلافات ؟ أين تعمل، وكيف، ومتى تتوقف، ولماذا ؟ فنستمر في حوارٍ مع ذلك الواقع حتى نتبين سائر جوانبه، ومن تلك الجوانب تلك المنظمات الدوليّة التي لجأ الإنسان المعاصر إلى تشكيلها، وإحاطتها ببعض الضمانات التي تساعدها على أداء دورٍ مناسب في ظروفنا المعاصرة لتحقيق حالة السلم، وتطويق دواعي الحروب.

الصناعات المعاصرة وكيف اتجهت إلى تصنيع هذه الأسلحة المدمرة وما أسبابها ؟ وما الرؤية الكامنة وراءها ؟، ومّن المستفيد، وما علاقتها بالرؤى الكليّة لأُمم اليوم وفلسفاتها ؟.

ما هي الفلسفات والنظم والمصالح التي أملت على البشريّة بلوغ هذه الحالة ؟ وما منابعها ؟ وهل من سبيلٍ إلى تجفيف تلك المنابع ؟ إلى غير ذلك.

فإذا استقصينا تلك الإجابات كلّها، وبنينا بها تصورًا دقيقاً لطبيعة ما نريد مسائلة مقاصد القرآن العليا عنها، ومناقشتها فيها، ننظر إلى نقاط الاتصال والانفصال والاستقامة والانحراف في سائر تلك التصورات، فلو أنَّ التوحيد كان سائدًا بين البشريّة، وكانت البشريّة مؤمنة بالله، موحّدة له، تؤمن أنّه خالق الكون والإنسان والحياة، وتؤمن أنّه المالك الحقيقيّ لكل ما في الوجود، وأنَّه سخّر هذه الموجودات لغايات حدّدها، ومقاصد رسمها، لما أمكن أن يتصرف الإنسان في الكون والطبيعة بهذه الطريقة، ذلك لإنّه سيحول بينه وبين ذلك التصرُّف المطلق المشين معرفته بأنه مستخلَف لغايةٍ وليس مالكًا حقيقيًا، وأنَّ التخويل والتوكيل الذي يحمله لا يسمح له بتلك التصرفات، وإن قدر على ذلك، فالتوحيد يصحح نظرته إلى نفسه، وإلى الكون، وإلى الطبيعة، وإلى الحياة، والعلم والمعرفة، وسائر هذه الأمور. ولأدرك أنَّ محاولته من أجل الاستعلاء في الأرض محاولةٌ مرفوضة من مالك الأرض والسماء، فتنعدم تلك الطموحات من بدايتها ويتم تحجيمها وترشيدها.

ثالثًا : سيقدّم له التوحيد كيانًا بديلاً للتعبير عن ذاته به ألا وهو ميدان خدمة البشريّة وحياتها وصحتها ومعيشتها وجعل البيت–الأرض–بيتًا آمنًا له ففي ذلك فليتنافس المتنافسون، وليس في الاستعلاء على الآخرين المساوين له في البشريّة والإنسانيّة. ولأَرشَده التوحيد إلى العلم النافع، وبيّن له أنّ أخاه الإنسان حين يدفعه انحرافه إلى الاعتداء عليه فإنّ أحسن وأهم وأدق وسائل الدفاع هو ألا يعتدي، وأن يكتفي إذا لم يشأ العفو بإيقاف الاعتداء عليه واسترداد حقه فذلك كافٍ للانتصار لنفسه، وهناك سلسلة طويلة نستطيع أن نستطرد فيها كلها تقود إلى أنَّ التوحيد يرفض أن تسخّر المسخّرات لتحقيق أغراض تدميريّة فالتدمير من عمل الشيطان، والحروب من نزغات الشيطان، وطلب العلو في الأرض والاستعلاء فيها نزعة شيطانيّة.

فإذا عرضنا ذلك على التزكية فإنّ التدمير الشامل الكليّ لا يمكن أن يصدر عن إنسانٍ قد تطهّر قلبه ومسّت التزكية ضميره ووجدانه، فالإنسان المزكّى لن يسمح لنفسه بأن يسرف في القتل والدمار وهو مؤمن موحّد يؤمن بأنه مستخلَف في ملك الله تبارك وتعالى لتحقيق غايات حددها سبحانه وتعالى بنفسه، وسيعلم أنّه إنّما وُجد في هذه الأرض وسُخر له العلم والمعرفة وسائر المسخرات ليقيم مجتمع السلم والأمن والطمأنينة،

مجتمع التسبيح لله وحده والخضوع لكبريائه وجلاله. والإنسان المزكّى لا يمكن أن يرضى لنفسه ممارسة الفساد في الأرض والخراب فيها ؛ لإنَّه يعرف برؤيته وبإيمانه أنّ ذلك ضد جميع القوانين والسُنن التي وضعها الله لهذا الكون.

فإذا احتجت النفس والشيطان بأنَّ هذا لرد العدوان فإنَّ عليه أن يعلم أنّ رد العدوان إذا بلغ ذلك المستوى لا يكون بتلك الطريقة ولكن بطرقٍ كثيرةٍ أخرى. وأنَّ توازن الرعب هو توازنٌ حيوانيّ قد يُقبل من الحيوانات المفترسة كالأسود والنمور وما إليها، ولكنَّه لا يُقبل من الإنسان، ثم ننتهي إلى ضرورة البحث عن الوسائل البديلة وما أكثرها للتوقف عن تلك الوسائل الساحقة الماحقة التي لا تنسجم مع أي مقصد من هذه المقاصد العليا ولا يمكن أن تُقبل.

الدولة والدعوة

إنّ كثيرًا من المسلمين حين يقرؤون هذا أو يستمعون إليه قد يقولون لابد من الردع، والردع يكون بالمماثلة، ونقول : لابد من الدعوة، فالأُمة المسلمة هي أُمَّة دعوة قبل أي شيء، تلك مهمتها وغاياتها والمقصد من وجودها، والدعوة قادرة حين تأخذ مداها وتؤدى بشروطها على أن تغير أولئك الذين يريدون في الأرض الفساد ليكونوا من المصلحين، وأولئك الذين يريدون العلو في الأرض ليكونوا من المتواضعين. أما إذا سلك الناس مسالكهم، وصاروا مثلهم يفسدون في الأض ولا يصلحون فلا يُنتظر إلا الدمار، والحالة هذه ؟. وهنا لابد من التفريق بين مؤسّسة الدعوة ومؤسّسة الدولة، فللدولة خصائصها وضروراتها واحتياجاتها، وللدعوة طبيعتها. والدولة المسلمة مهامها تدور حول «الأُمَّة المسلمة» وحمايتها، وحماية مصالحها، وتحدّد علاقاتها مع الحكومات والشعوب وفقًا لذلك، دون أن تتجاهل كونها دولة «لأُمَّة دعوة» من رسالة الدعوة ومضمونها تستمد شرعيَّتها، وإلى قيمها تستند في وجودها. أمّا مؤسّسات الدعوة فميدانها الأرض-كلّها-وخطابها موجّه بشعوب الأرض كافّة، وهي دعوة سلميّة تقوم على الحكمة والموعظة والمجادلة بالتي هي أحسن. تقوم الدولة بالدفاع عن الدعاة وحمايتهم وفقًا للنظم التي تنظّم علاقات المواطنين وواجب دولهم في حمايتهم والمحافظة عليهم

عندما يتعرضون إلى مخاطر، لكنّها لا تمارس أيّة ضغوط على دول أخرى غير مسلمة لحملها على قبول الإسلام؛ لإن ذلك سوف يعرّضها إلى مشكلات لا تخفى، وإلى مخالفات شرعيَّة لا تُقبل، في مقدمتها اكراه الناس على الإسلام.

فإذًا ستقودنا هذه القيم إلى ما أُوجدت هذه الأُمَّة من أجله وبنيت لتحقيقه، ألا وهو الدعوة، دعوة البشريّة كلها إلى الدخول في السلم كافة، ولعل مما يستأنس به لقولنا هذا ما نشاهده اليوم من أنَّ البشريّة كلها تحاول أن تجد سبيلاً للتخلص من أسلحة الدمار الشامل، والاتفاق على تحريمها والحيلولة دون امتلاكها بعد أن ظهر الفساد في البر والبحر وأصبحت الأرض مهددة كلها بالفناء أو الانقراض بما فيها من عليها ومعها البشريّة. وما ذكرناه من ضرورة تفكيك السؤال وتفكيك الواقع وكل ما يتعلق بذلك إنما هو للكشف عن القواعد والأصول التي بمقتضاها يتم تشغيل هذه المنظومة، قل مثل ذلك في الإسراف في استهلاك الطيبات من الأرض، وتلويث البيئة والمياه والأجواء، وقضايا الأسعار والاحتكارات وإخراج المال من وظائفه وسائر ما إلى ذلك.

إذًا فسوف نجد أنفسنا مضطرين أن نعمل جميعًا وبكل طاقاتنا، وأن نشترك معًا في عمليات التفكيك والتركيب والصياغة والتقييم مما سوف يقدم لنا فوائد جانبية أخرى كثيرة تجعل الأمة كلها تشترك في صياغة أسئلتها، وفي معرفة الجوانب المختلفة في واقعها، والوصول إلى حلولٍ لهذا النوع من مشكلاتها.

إشكاليَّة القياس، قياس الداعية على النبي-صلى الله عليه وآله وسلّم-ترتبت عليها إشكاليَّات كبيرة في العمل الإسلاميّ، الإشكاليَّة الأولى : أنَّ هذا القياس قياس الداعية على النبي-صلى الله عليه وآله وسلّم-لا يصح ولا يُقبل، والفوارق بين النبيّ والداعية أكبر من أن تسمح بمثل هذا القياس. فالأنبياء معهم من الله-سبحانه وتعالى-سلطان، يُهيّئ البشر لطاعتهم، يقول جل شأنه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ (النساء : ٦٤)، فيهيّئ الله-تبارك وتعالى-له في خطابه وسلوكه والخوارق التي يمكَّن منها، وغير ذلك مما

على مثله يؤمن البشر ويخضعون ومع ذلك فنجد بعض الأنبياء لا يطيعهم إلا النفر القليل، وأنبياء تنقاد إليهم أُمَم وشعوب، وقد يأتي النبي ولا أحد معه.

أما الدعاة فهم أناس متطوّعون لا يحملون صفة الاصطفاء الإلهيّ، ولا يستطيعون ادّعاء سلطانٍ على أقوامهم بالخوارق وما إليها، ولا اتصالاً بوحي، ولا يحصلون-عادةً-على تأييد بخوارق مثل نزول الملائكة تبشّر وتؤيّد وما إلى ذلك. ولقد كان من أخطر انحرافات الفكر الدعويّ هو هذا القياس القائم على إلغاء الفوارق بين الأنبياء والدعاة، ولقد رأينا أحزابا سياسيَّة ودعاةً قاسوا أنفسهم على الأنبياء وصادفهم فشلٌ ذريع. فهناك حزب سياسي نشأ في خمسينات القرن الماضي زعم قادته أنَّهم قد اكتشفوا المنهج النبويّ في الدعوة وتأسيس الدولة، وأنَّهم قد قرّروا سلوكه ليحصلوا على ذات النتائج التي حصلت لرسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم-حتى إنَّهم قسّموا فترات الدعوة إلى فترتين : فترة مكيَّة، وثانية مدنيَّة، وقالوا آنذاك إنهم في العصر المكيّ وأنَّهم قد سلخوا من-وكان هذا الكلام سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤-الجزء الخاص بالعمل السريّ ست سنوات وهي التي اعتبروها سنوات العمل السري في جهاد رسول الله —صلى الله عليه وآله وسلم-لهداية الناس، وسينتقلون إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة التفاعل-كما سموها-والخروج، ثم ينتقلون إلى المرحلة الثالثة وأنَّه لن تنتهي السنة الثالثة عشرة إلا وقد قامت الدولة في مكانٍ ما، وفي أحد اجتماعات اللجنة المركزيَّة للحزب نوقشت بعض الأمور فقال زعيم الحزب لزملائه في القيادة : بناء على منهجنا فإنَّ موقعي منكم هو مثل موقع رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم-بين أصحابه، وقد شاورتكم واستمعتُ إليكم وهذا يكفي في القيام بمقتضى الأمر بالشورى، والآن قد عزمت وقد خوّلني الله-سبحانه وتعالى-أن أتوكّل عليه وأمضي هذا الأمر، وإن خالفني في ذلك أكثركم، واستقال على ما أذكر بعض هؤلاء الأعضاء القياديين، ومر بدلاً من الثلاثة عشر عامًا ثلاثون وأربعون وخمسون من الأعوام ولم يتحقّق شيء، وتعلّل الحزب بعلل مختلفة، وكان يمد في الفترة من حين لآخر، ولولا هذا القياس الخاطئ لما كان الحزب في حاجة للسقوط إلى ما سقط فيه. وأزمة الدولة والدعوة أزمة شديدة الخطورة وهي أزمة تاريخيَّة لم تحل، وأعزو إلى هذه الأزمة كل التشنّجات الحاصلة والتي حصلت قديمًا بين رجال

الدولة والدعوة، والتي انفجرت في كثير من الأحيان انفجارات دمويَّة وأدَّت إلى صراعاتٍ داخليَّة وحروبٍ أهليَّة، وأسقطت دولاً وأراقت تلك الدول دماء دعاتها. وما أزمة الخلاف بين الملك الراحل عبدالعزيز والإخوان بقيادة الدويش ودولة إيران في الوقت الحاضر وقبلهما المهديَّة والسنوسيَّة عنا ببعيد. ففي هذه النماذج كلّها نجد دولة توظّف دعوة، وحين تصل إلى السلطة ويبدأ عمل الدولة، والعمل على تلبية احتياجاتها يجد حملة الدعوة في أنفسهم حرجًا وإحساسًا بخيبة الأمل لإنَّ الدولة إذا مارست الدعوة تُتّهم من قِبل دول العالم كله بأنَّها تصدّر الثورة وتعمل على إيجاد القلاقل وخلق المشاكل لجيرانها وغير جيرانها، وإذا لم تمارس ذلك، وتفرّغت لعمل الدولة داخل حدودها ورعاية مواطنيها وتنفيذ برامجها فإنَّ الدعاة سيجدون في صدروهم حرجًا مما يرون وشعورًا بخيبة الأمل من أنَّ ما سعوا إليه، وجاهدوا وناظروا من أجله سنين طوال لا يجد اهتمامًا فينتهي الأمر إلى الصراع الداخليّ بين الدعاة ورجال الدولة، حدث ذلك في معظم مفاصل تاريخنا، واضّطرت إلى ذلك معظم الدول التي قادت في الواقع التاريخي من أمويَّة وعباسيَّة وأُمَم موحّدين وغيرهم، واضُّطر الملك عبدالعزيز أن يقاتل الدعاة الذين وصل بهم ومعهم إلى السلطة لإنَّه لم يجد حلاً لذلك التناقض، وما حدث في السودان من تنحية حسن الترابي ومَن حوله ممن صار يطلق عليهم "قيادات تقليديَّة أو بائدة" من قِبَل رجال السلطة والحكم، والأزمة اليوم مستمرة مع الدعاة في بلدان كثيرة ومنهم أولئك الذين أطلقوا على أنفسهم رجال قاعدة الجهاد وأطلق عليهم خصومهم الإرهابيين وما إلى ذلك.

ولم تسلم إيران مع ثراء تجربتها في العمل السريّ والدعويّ والإماميّ من آثار هذه الظاهرة المدمِّرة وهاهي اليوم مهدّدة بالتمزُّق بين مَن يطلق عليهم "محافظون" أي متشدّدون، و" إصلاحيُّون" أو مرنون متساهلون، وهذا الصراع أو التناقض في حقيقته إنَّما هو تناقض وصراع بين متطلبات الدولة والدعوة.

هذه الظاهرة لم تكن خاصة بأُمَّتنا الإسلاميَّة بل هي عامة في كل الأُمم التي قامت على أديان، فهذه إسرائيل يعتبر أقوى المخاطر والتحديَّات الداخليَّة بالنسبة إليها هو الصراع بين التوراتيين القرّائين، وبين العلمانيين الصهاينة، وهذا الصراع لو نما واستفحل ولم تبتكر له صيغ تنفيس فإنَّه سوف يؤدّي لا محالة إلى تمزق

داخليّ وصراع أهليّ قد ينجم عنه انهيار الدولة، وكذلك الحال بالنسبة لمختلف البلدان. ومنذ خمسين عامًا أو تزيد والحركات الإسلاميَّة في سائر بلداننا الإسلاميَّة في صراع مع الحكام كثيرًا ما أدّى إلى استعانة بعض الحكام بالأجنبيّ وخضوعهم له لدرأ الخطر الداخليّ المتمثِّل بالحركات التي سُمّيت "أصوليَّة إسلاميَّة متشدّدة" ثم أُطلق عليها حركات "إرهابية" لإنَّها تتوثّب إلى السلطة التي تراها أخلفت كل ما وعدت به في فترة النضال لنيل الاستقلال من تطبيقٍ للشريعة والتزام بالهويَّة وإقامةٍ لقيم الدين.

في نظرنا المتواضع المنطلق من الاهتداء بهدي القرآن المجيد أنَّ الأمر على مستوى النبيين واضح ومفهوم فهناك أنبياء أوتو الحكم والنبوة : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام : ٨٩)، وأنبياء لم يؤتوا إلا الدعوة ولم يؤتوا حكمًا. وهذا بالنسبة للأنبياء والرسل الذين تم اصطفاءهم إلهيًّا وتمت صناعتهم على عينه–سبحانه وتعالى–وأمّا الدعاة فيفترض أن يكون هناك مَن يهتموا بشأن الدولة والحكم وتسيير أمور الناس مهتديًا بقيم الدعوة عاملاً على تحقيق نماذج لها وأمثلة يمكن الاقتداء بها والاستفادة من خبرتها وتجاربها وللدولة آنذاك أن يكون لها إقليم له حدود معروفة ويكون لها شعب له هويَّة وحقوق وواجبات، وتكون لها مصالح وموارد ومصارف تحدّد بحيث لا يضار المنتَمون لذلك الجزء أو ذلك القسم ولا يجار عليهم، وتكون لدى الدولة المرونة الكافية بأن تتقارب مع دول معينة وتتضامن مع دول وتحدّد مواقفها بشكل آخر مع دول أخرى دون أن يكون في ذلك مخالفة تذكر لأصول الدين وقواعده وأصول الدعوة، وتكون هناك أجهزة للدعوة ومؤسّسات تستفيد بالأوقاف والمتطوعين والراغبين في العمل الأهليّ والخيريّ وتمارس نشاطها في كل أنحاء العالم لنشر الدعوة دون أن تحمل الدولة أيّة مسؤوليّات أو تعرِّضها للاتهام بأنَّها تصدر ثورة أو تدعم إرهابًا، فمؤسّسات الدعوة تتحمّل بنفسها مسؤوليّاتها ولا تتحمل الدولة تلك المسؤوليَّة، ولعل ما فعله سيدنا رسول الله–صلى الله عليه وآله وسلّم–في غزو الحديبيَّة حين التزم ببنود الاتفاقيَّة وخالفه جمهرة أصحابه–رضوان الله عليهم–المخالفة الحادة المعروفة التي جعلته–صلوات الله وسلامة عليه–يدَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ . فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ،

وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ». فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا»[٢٨] فسيدنا عمر والآخرون الذين أغضبهم ذلك الاتفاق كانوا يتكلمون بمنطق الدعوة، بينما كان النبي-صلى الله عليه وآله وسلّم-يتكلم بمنطق المسئول عن أُمَّة واتفاق لابد لهم من تنفيذه رغم الضرر الظاهر الذي يهدّد أفرادًا كثيرين، وإذا اعتبرنا أبا بصير وأبا جندل والذين ردّهم رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم-بمقتضى الاتفاق إلى قريش وتمرّودوا واتخذوا لهم موقعًا مغايرًا لا يقع تحت سلطان رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم-المباشر، ويعطي لرسول الله-صلى الله عليه وآله وسلّم-الحريَّة بأن يقول لقريش إنّه قد وفّى بما عاهد عليه، وفي الوقت نفسه يعطي لأولئك الدعاة المقاتلين حريَّة تامة أخرى بأن يقولوا إنّهم هم المسؤولون عن تصرفاتهم وعما يفعلونه.

وعصرنا هذا قد عرف صيغًا أخرى يمكن النظر في بعضها فلا يخفى على أحدٍ منا أن التبشير متضامن متكافل مع دول التنصير العلمانيَّة التي تنفي أن يكون لها علاقة بالدين أو الدعوة إليه أو تبنّي قضاياه، لكنّ نتائج الجهود التنصيريَّة للكنائس والبعثات التنصيرية وما إليها تصب كلها في صالح هذه الدول التي تلتزم بالليبراليَّة والعلمانيَّة وما إلى ذلك وتنفي عن نفسها أيّة صفة دينيَّة، لكنّها في الحقيقة تستفيد الفوائد كلّها من هؤلاء وتحميهم وتدافع عنهم عندما يتعرضون إلى مخاطر.

إنَّ الإسلام أولى بأن يدرك أبناؤه وحملته والغيارى على مصيره ودعوته هذه الحقائق، وأولى أن يجدوا الصيغ الملائمة من هدي القرآن الكريم وصيغة النبي العظيم-صلى الله عليه وآله وسلّم-لمعاجلة هذه الإشكاليَّة، فالدعوة لا ينبغي أن يقف أمام شمولها وعمومها وكون الأرض كلها ميدانًا لها وكون البشر كلهم موضع مخاطبة وتكليف بها أية عوائق لكنها في الوقت نفسه ينبغي أن تكون للمسلمين دولة أو أكثر تقوم على رعاية مصالحهم والمحافظة على حقوقهم وتمكينهم في الأرض ودعم الدعوة بأشكال دعم لا تؤثر على الدولة ولا تنزع صفة الدولة عنها ولا تجعلها هدفًا لسهام الدول كلها كما حدث في فترات تاريخيَّة كثيرة، وأظن-والله

[٢٨] صحيح البخاري ١٠\٧٧، حديث رقم : ٢٧٣١،٢٧٣٢.

أعلم-أنَّ البحث للوصول إلى صيغة كهذه يمكن أن ينفّس الاحتقان الداخلي في العالم الإسلاميّ وينزل بأسباب الصراع إلى حدّها الأدنى بين الدعاة والحكام إن لم يمحها تمامًا ويُوجِد صيغ تعاون معقولة تحقّق مصالح للأُمَّة وللدعوة وللدولة كذلك بدون مساس بحقيقتها.

الخاتمة :

لعلنا بعد هذه الجولة الوجيزة المركزة في القيم ومصادرها وغاياتها وآثارها قد نجحنا في إعطاء صورة وجيزة مركزة عن هذا الموضوع الذي اهتمت به الأديان والفلسفات والأفكار حتى صار محورا من أهم محاور الاهتمام الإنساني في سائر المجالات. ولعله قد تبين كيف تستهدف القيم حينما يراد إحداث تغيير في أي مجتمع أو أمة إذ إن استهداف القيم وإحداث أي تغيير فيها يؤدي لا محالة إلى فتح أبواب التغيير على مصارعها سواء باتجاه الأفضل أو الأسوء. ونظرا للأحوال الصعبة التي تمر بها أمتنا بكل مقوماتاها ومكوناتها فقد حاولنا أن نضيئ بعض الجوانب التي تحتاج منا إلى انتباه شديد وقد نكون خلال هذه الإضاءات قد دخلنا في مجالات لعل منها ذلك الامتزاج أو التداخل بين القيم والمقاصد، وكذلك حين تعرضنا لجانب الصراع وما قد يحدث بين الدولة والدعوة من آثار في ثبات بعض القيم وتغيرها أردنا التنبيه إلى ما يمكن أن يوجد فاصلا لعله يحفظ قيم الدعوة من غير أن يحرج الدولة ويعطي للدولة من المرونة ما يباعد بينها وبين تسييل بعض القيم ومما لا شك فيه أن هذا الموضوع موضوع هو من الأهمية بمكان بحيث يستلزم توسعا في البحث قد يصل به إلى مستوى كتاب أو أكثر دون أن تقال فيه كلمة حاسمة. والله أعلم.